« السلسلة النادرة »

لفضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى

عذاب النار وأهوال يوم القيامة

أعداد: جمال إبراهيم

الحرية للنشر والتوزيع

اسم الكتـــاب : **عذاب النار وأهوال يوم القيامة**

النـاشـــــر : **الحرية للنشر والتوزيع**

المركز الرئيسى : ١٦٩ ش أحمد عرابى ـ شبرا الخيمة

تليـفـــون : ت : ٢٢٠٥٥٠٠

الطبـعـــة : **الأولى ـ ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩**

رقـم الإيـداع : **١٦٢٦٢ / ٩٨**

الترقيم الدولى : I. S. B. N. 977 - 5832 - 16 - o

إعـــــداد : **جمال إبراهيم**

مكتب الجـمع : **آرمس للكمبيوتر**

القاهرة ت : ٣٥٦٤٤٠٤

الـطــبــع : **مطبعة النصر**

ش نشاطى ـ شبرا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، المنزل عليه فى الذكر الحكيم ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾.

أحمدك ربى كما علمتنا أن نحمدك...

اخوانى المؤمنين ، وكفى بذلك الوصف تعريفًا تجتمع فيه أقدار الناس فى الحياة ، أحييكم بتحية الإسلام ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وأسأل رب العرش ـ سبحانه وتعالى ـ أن يهدينا فإنه من يهديه الله فلا مضل له ، ومن يضلله الله فلا هادىٍ لهُ وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خير من علم عن الله وآخر من أعلم به ... وبعد .

بين يديك أيها القارئ كتاباً من « السلسلة النادرة » للشيخ « محمد متولى الشعراوى » عليه رحمة الله .

توافرت فى هذه السلسلة جميع الموضوعات التى يحتاج إليها كل مسلم ، فاحرص على اقتنائك إياها لتنتفع بها وأهلك ، لما فيها من الموضوعات والأسئلة الهامة التى تشير إلى الطريق الصحيح ...

ونسأل الله أن ينفعنا بما علمنا ....

والله ولى التوفيق

الناشر

عظمة الإسلام

عظمة الإسلام

أسرار عالم الأنساب

خلق الله الكون وسخر كل ما فيه للإنسان، أى لمطلق إنسان؛ لأن الله هو الذى استدعى الإنسان للوجود، وما دام هو الذى استدعاه للوجود فلا بد أن ييسر له وسائل الاستبقاء فى هذا الوجود، وذلك ـ كما قلنا كثيراً ـ هو عطاء الربوبية؛ لأن الرب هو المربى والسيد والمالك .. ومعنى المربى: أن يتعهد من يربيه إلى أن يبلغ الكمال المرجو له، ولذلك كان من رحمة الله تعالى أن استجابت الأرض بكل ما فيها للإنسان .. كل إنسان .. فالذى يتفاعل مع الأسباب تعطيه الأسباب، فإن كان فى باله عند تفاعله مع الأسباب خلق المسبب لهذه الأسباب أخذ خطين: خط استجابة الأسباب له فى الدنيا، وخط إنعام المنعم عليه فى أخراه.

وأما الذى يقف عند الأسباب فقط، وينكر أنها من خلق المسبب فالأسباب تعطيه، ويأخذ من خير الدنيا ما يعطيه جده واجتهاده، فإذا جاء فى الآخرة صور الله له المسألة بأن قال: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ**﴾(١) أى: تفاعلهم مع الأسباب وتطيعهم المسببات ﴿**كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ**﴾(٢) السراب: ما يخيل لك وأنت سائر فى الصحراء أن هناك ماء، فإذا ما ذهبت إليه لم تجد ماء، فكذلك الذين كفروا بربهم أعمالهم مثل السراب بقيعة ﴿ **يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً**﴾(٢). الظمآن حينما يرى السراب يذهب إليه.

انظروا إلى روعة التصوير الأدائى: كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ﴿**حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا** ﴾(٢). اليأس بعد الأمل. هو ظمآن، وهو فى صحراء، ثم لا يجد ماء، كيف يوجد الأمل فى نفسه بعد ذلك؟ ولكنه أنسى أن ظمأه سوف يشفى برى هذا

---

(١) سورة إبراهيم ، من الآية : ١٨.

(٢) سورة النور ، من الآية: ٣٩.

الماء، ولكنه لم يجد شيئا، وليت الأمر اقتصر على هذه الخيبة، ولكنه ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ﴾(١) فوجئ بوجود الله. ومعنى فوجئ بوجود الله: أنه ساعة كان يزاول الأسباب فى الدنيا لم يكن على باله الله، فوجد الله الآن. ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾(١) لأن الله لم يكن فى باله ساعة عمل العمل.

والإنسان عادة يأخذ أجره ممن عمل له، وهو لم يعمل لله، ففوجئ بأن الموجود هو الله، وهو لم يعمل لله، فكيف يعطى شيئا؟

ولكن هل حرمه الله من أجر عمله فى الدنيا؟ فقيل له: أنت ناجح، وأنت المبتكر، وهذا تمثال لك، وهذه الذكرى لك، والعالم كله أعطاه التكريم؛ لأنه عمل للعالم ولم يعمل لله، فأعطاه العالم حين وجد العالم، وحين وجد العالم (بكسر اللام) ولم يوجد العالم (بفتح اللام) لا يجد من يعطيه، لأن الله لم يكن فى باله.

فالذين يقولون: الكفار الذين يقدمون للإنسان كذا وكذا فهل يحرمون من الثواب؟ نقول لهم: هم لم يحرموا من الثواب، لقد أعطاهم العالم الذى عملوا له، أعطاهم النياشين والشهادات، والذكريات والأموال. عملوا للعالم فأعطاهم العالم، ولذلك يقول الرسول ﷺ فى الذى يعمل العمل فلا يجازى عليه: « **فيقال له: قد عملت ليقال كذا، وقد قيل** »، وانتهت المسألة.

إذن فالذى يعمل للفانى فجزاؤه فى الفانى، والذى يعمل للباقى فجزاؤه مع الباقى. فالذين تعجبون بهم وبحضارتهم نقول: أعطتهم الدنيا. لكن أيليق بالمؤمن بالله أن يترك خير الله فى وجوده ليغتصبه منه الكافر بالله؟ لا. غيرتنا على الله تقتضى أن نقول: يجب أن يكون المؤمن هو الأولى بأسرار الله يستنبطها فى الأرض، فيتفاعل، ولا يجعل الكافر يغلبه على شئ من أسرار الحياة؛ لأنه ربما غلبه، وربما جعل الغلبة فتنة له فى دينه.

إذن فالكون نوعان: نوع يفعل لك وإن لم تطلب منه، فالشمس تعطيك الحرارة والدفء والنور دون أن تطلب منها، والهواء والماء كذلك، كل هذا يعطيك. وقسم يعطيك إن تفاعلت معه. فالأرض تقول: إن تفاعلت معى وزرعت ورويت أُعْطكَ.

---

(١) سورة النور، من الآية: ٣٩.

غلبة الناس فى أى صنف؟ هم شركاء فيما ينفعل لهم، يتفاوتون فيه، فهذا قوى لأنه يتفاعل مع شئ لم يتفاعل معه غيره، ومن هنا يرقى، وهناك ارتقاء بأن تتفاعل مع ما يفعل لك وإن لم تطلب، فالشمس تعطينى الدفء والحرارة ، أما إذا ارتقيت فى الحركة فإنها تتفاعل معك لتعطيك شيئاً آخر كمن يأخذون منها الطاقة.

فالموجودات ثلاثة أقسام فى النفعية: قسم يعطيك وإن لم تطلب منه، وقسم يعطيك إن تفاعلت معه، وقوة الناس بالصنف الثانى، وقسم يرتقى الناس فيه وذلك بالتفاعل مع القسم الذى يعطيك وإن لم تطلب منه.

والمؤمن يجب أن يعلم أن حركته فى الحياة يجب أن تتواءم مع الجدوى، إننى أخرج فى أول النهار فأتحرك فى الحياة، فحصيلة الحركة نسميها الجدوى أو الغلة، يجب أن أحسب كسبت كم، واستهلكت كم. فإن كان ما أنفقته أكثر مما أنتجته فأعلم أن خرابا ينتظرنى.. وإن كان ما كسبته قدر ما أنفقته فهذا جمود.. وإن كان ما كسبت أكثر مما أنفقت فأعلم أن رقيا ينتظرنى. فيجب على المؤمن أن يحاسب نفسه كل يوم، ما كسبه؟ ما جدواه فى هذا اليوم؟

فإنه حينئذ يبنى حياته على بصيرة.

واعلم أن الحق سبحانه يريد من حركتك فى الوجود استطراقية النفع لك ولسواك. لا يطلب ذلك منك وحدك ، فإن طلب منك أن تتقن العمل الذى تعمله للناس فثق أمام هذا أنه يطلب من غيرك أن يتقن العمل الذى يعمله لك، وإن أنت خدعت الناس فى العمل الذى تعمله للناس فسيقذف الله فى قلوب الناس أن يخدعوك فى العمل الذى يعملونه لك، وتستطيع أن تعطى نفسك كشفا فى كل جزئية من جزئيات حياتك، وتقول: أنا فعلت كذا وفعلت كذا بإخلاص، بنصف إخلاص، بربع إخلاص، وتكتب هذا، ثم تحسب الحصيلة التى أخذت منك: ذهبت للطبيب، فلان ضحك على، ثم تحسب النتيجة تجدها تساويا.

ستخدع واحدا، سيخدعك عشرة. فلا تحاول أن تخدع ربك. فالمسألة من يستغفل يستغفل نفسه، من يتعب يتعب نفسه، وزاد عليك أنك أثمت فيما صنعت.

وكذلك يعطى الله فى حركة الوجود استطراقات ليمنع الغل والحسد، إن رأيت إنسانا قد تفوق عليك فى شئ فربما لا يستفيد هو بل يفيد غيره، أما سمعت المثل « باب النجار مخلع »؟ والحلاق الممتاز أفاد الناس وربما لا يجد من يحلق له بامتياز. فكل صاحب موهبة ستعود موهبته عليك، مثلا اليد اليمنى الجيدة الحركة حينما أمسك بها المقص لأقص أظافر يدى اليسرى أقصها بمنتهى الدقة، فإذا أمسكت المقص الشمال لأقص أظافر اليمين فأنها لا تقص بإتقان، إذن تفوق اليمين عاد على الشمال، إذن حينما ترى خصلة خير فى إنسان فقل: إن هذه الخصلة ستفيدنى، وخيبتى أنا هى التى تضره.

الله يريد منا استطراق الحركة فى الحياة برضا وإخلاص، فأنت إذا عملت عملا واتقيت الله فيه نقول لك: أنت تعمل هذا العمل، ومطلوب منك الإتقان لجهتين: الأولى صاحب العمل، والثانية الله. صاحب العمل من الجائز ألا يدرك الخلل. أما الله فيدرك كل شئ. فكل عمل ساعة تعمله تعمله لمن؟ لله. إن كان كذلك فإن الله الذى عملت العمل لأجله، وقدرت مراقبته لك، سيراقب لك أعمالك فى يد الآخرين، فإذا غششت فى عمل غشك ألف شخص.

وانظر إلى الناس حولك فستجد أن الاستقامة هى الاستدامة، وستجد من يرعى الله دائما مكتوب له القبول والتوفيق فى أشياء لا تخطر لك على بال، وقد تعجب، ولكن يد الله معه؛ وبركته معه، لأنه يعمل لله، إذن حركة المؤمن فى الحياة يجب أن تكون موصولة بالله، ومادامت موصولة بالله فالله يقدر لك الجزاء على قدر الله، والإنسان يقدر لك الجزاء على قدر نفسه، والخلق بالنسبة له سواء؛ ولذلك لم يتخذ ولدا ولا صاحبة فعين رعايته لنا سواء.

●●●

النعمة والبلاء

يريد الله منا صيانة لأجهزة الإنسانية ألا نأسى على ما فات، فقال: ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾(1) أعطنى إنسانا لا يحزن على شئ فات، ولا يفرح بما أعطاه الله له، هذا إنسان مستقيم التكوين، الذى مضى لا يأخذ منه، والخير الذى ينهال عليه لا يأخذ منه؛ لأنه لا يعرف أن ما أتاه هو خير أو شر. يطلب مالا أو غيره فَيُعْطَاهُ، ولا يعرف إن كان خيرا أو شرا. فالذى فات لا يرد، والأسى هنا أضعف طاقتك عن تحمل أعباء الحياة. هذه مصيبة أخرى، ولكن الله يريد أن يعلمك أن ما انتهى فقد انتهى، فلا تفكر فيه؛ لأنه يضعف طاقتك فى الحياة.

بهذا المنهج يرشد الله الناس إلى طريقة استقبال الحياة، واستقبال الحياة أمر طبيعى، لوجود الإنسان فى مقر يضم المستقيم على المنهج والمنحرف عن المنهج، إذن فوجود الأحداث أمر طبيعى، ومادام وجود الأحداث أمراً طبيعياً فلابد من المناعة ضد الأحداث، الأحداث التى تأتى للإنسان ضرورية، مادام الإنسان متغيرا ويتعامل مع عالم متغير أيضا فيجب أن يوطن نفسه على وجود الأحداث.

يقول الحق: لا تعش فى الحدث غير زمنه، إذا انتهى زمنه يجب أن ينتهى شغلك به إلا أن تأخذ منه العبرة فيما يأتى. أما أن يكون الحدث مثبطا لك ومضعفا لطاقتك فاعلم أنك الذى أردت إحياء الحدث من الماضى إلى المستقبل، وليس ذلك من العقل.

ويجب أن توطن نفسك على أن الأشياء التى تأتيك وإن كانت تعجبك فاستقبلها كنعمة من الله بالحمد، وإياك أن تفرح بها؛ لأن النعمة فى ذاتها غير مفرحة، إلا أن توفق فى مصارفها، أما النعمة فى ذاتها فغير مفرحة؛ لأنها قد تضرك أنت وتغريك بمعاصٍ ربما لو لم يكن عندك من المال ما يغريك عليها لم تعص، إذن لا تأسوا على مافاتكم ولا

---

(1) سورة الحديد، من الآية: ٢٣.

تفرحوا بما آتاكم. لماذا؟ لأنك لا تفرح بالشئ إلا إن تحققت به غاية، وغـاية الشئ ليست مجرد ملكك له، لكن غايته هو صرفه فيما يحب الله.

فلا تفرح. الفرح يجب أن يؤجل إلى أن تعرف مصير النعمة التى أعطاك الله إياها، أوفقت فى أداء حقـها عليك أو لم توفق. ولذلك يأتى الحق ليشرح لنا هذه القـضية التى يتوقف عليها مدار حركة الكون والآمال. قال الله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ** ﴾(1). هذا فى ظاهر الأمر مـقبول ﴿ **وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ** ﴾(2). هذا مـا يقوله الإنسـان. فهل صـوب الله منطق الإنسان؟ منطق الإنسان فى الأولى ومنطق الإنسان فى الثانية أم خطأه؟

قـال الله: « **كـلا** ». يعنى: لا منطقـه فى الأولى صـحيح، ولا فى الثـانيـة صحـيح. كيف؟ النعمة لا يفرح بإتيائها، إنما يفرح بمصرفها. ﴿ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾(3). ومادمت لا تكرم اليتيم يا من أعطيت النعمة فالنعمـة حجة عليك. أنت دخلت فى امتحان صعب وسقطت فيه. ليس الإكرام فى الإيتاء، لكن فى صحة الإنفاق ﴿ **وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ** ﴾(4) وحتى حث الغير على طعام المسكين لا تصنعه ﴿ **وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ⑲ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** ﴾(5).

إذن إيتـاء النعمـة إكـرام أو وسيلة إهانـة؟ قد يكون وسـيلة إهانة؛ لأنك تعـرضت للإيتاء دون الإعطاء.

والحق صنف الخلق أصنافـا: المبغـوضون درجات، والمحـبوبون درجـات، فقـال ما معناه: « **أحب ثلاثا وحبى لثلاث أشد: أحب الغنى الكريم، والفـقيـر الكريم أشد، وأحب الفقير المتواضع، والغنى المتواضع أشد** » لأن عنده أسبـاب الكبر « **وأحب الشيخ الطائع، والشاب الطائع أشد** » مقومات المعصية موجودة عنده ولا يستعملها. « **وأبغض ثلاثا وبغضى لثلاث أشد: أبغض الغنى المتكبر والفقير**

---

(1) سورة الفجر، الآية: ١٥.
(2) سورة الفجر ، الآية: ١٦.
(3) سورة الفجر ، من الآية: ١٧.
(4) سورة الفجر ، الآية: ١٨.
(5) سورة الفجر ، الآيتان: ١٩، ٢٠.

المتكبر أشد، وأبغض الفقير البخيل، والغنى البخيل أشد، وأبغض الشاب العاصى، والشيخ العاصى أشد».

فإن كنت فى مجتمع غنيه كريم، وفقيره متواضع، وشبابه طائع، فتلك هى المدينة الفاضلة بحق، هى النعمة. والدون والحضيض هو المقابل: فقيره متكبر وغنيه بخيل، وشبابة عاص.

فحركة الحياة حينما يقول الله: ﴿ **لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ﴾(١) تعنى أن الأتيان قد يكون فتنة لك، لأنك لا تؤدى حق الله؛ فتكون النعمة حجة عليك. وإذا كنت تأسى على مافات، أى تشغل نفسك بما لا يجدى. نقول: ليتك شغلت نفسك بما يجدى. ولو أشتغلت بما لا يجدى تكون ضيعت الطاقة التى تستقبل بها التعويض عن الحدث الفائت. احذر أن يتركب فى نفسك أن الحدث هو الذى صنع لك كل بؤس فى الحياة، والحقيقة أن الهم يأتى من شئ مؤخر، ولكنك لا تعرف مصدره، فلا قوة لك على دفعه، وهذا هو أشد ما يفتك بالنفس الإنسانية: أن يستولى عليك أمر لا تعرف مصدره أو تعرفه ولا قوة لك على دفعه. هذا هو الهم المعقد.

●●●

(١) سورة الحديد، من الآية : ٢٣.

السعادة والشقاء

حركة الخليفة إنما جعلت في الأرض لرفاهته، فإذا أراد مستوى رفيعا من الحياة فعليه أن يعمل بكل طاقاته في كل مالديه مما خلق الله، فإن لم يكن ناعم البال فالتقصير من الخليفة لا من المستخلف، وحركة الحياة تتطلب توجيه طاقة مخلوقة في مادة مخلوقة بتخطيط فكر مخلوق لله، فكل شئ مآل الفضل فيه إلى الله، ومقومات الحياة المادية شئ، ومقومات الحياة القيمية في النفس البشرية شئ آخر. وقد يستكمل الإنسان كل مقومات حياته المادية، ومع ذلك يظل قلقا في الحياة، وذلك ما نشهده في ذلك العصر الذي ارتقينا فيه ارتقاء جعلنا نطأ القمر.

وكان المفروض أن يسعد الناس فيه، ولكننا نجد أننا كلما شدونا في شئ من الأشياء التي نستنبط بها سرا من أسرار الله في الوجود نجد أن الشقاء يزداد بنسبة هذا الكشف. إذن فلابد أن تبحث عن شئ مفقود، كان المنطق أننا في ارتقائنا في الحياة لابد أن نسعد بنسبة ما ارتقينا، ولكننا نشقى شقاء عاما، بحيث لا نجد قوة في الأرض مهما كانت سلمت من الفزع، ونجد أعصابا متوترة لا تهدأ أبدا، لو كان ذلك في الأمم الضعيفة المتخلفة لكان له مبرر، فما له يوجد في الأمم القوية أيضا؟! وقد توجد قوة أدنى من هذه الأمة القوية، ولكنها تزلزل أمنها، وتصدم كبرياءها، كل ذلك يدل على أن هناك عنصرا مفقودا.

هذا العنصر يدل على أن العالم مهما اتسعت مادياته فهناك عنصر مفقود هو: عدم الأمن من الخوف، إذن فالحق سبحانه حين يلفتنا إلى قوته وقدرته، وأن الإنسان ليس متروكا لأخيه الإنسان، وأن الناس مهما كانت لهم حرية الحركة فهم محكومون بحساب دقيق، هذا الحساب يمثله قول الله تعالى: ﴿ فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾(١).

---

(١) سورة طه : من الآية ٥٢.

إياكم أن تفهموا أن ذلك فى الآخرة فقط، بل إنه فى الدنيا أيضا؛ فكل إنسان له صحيفة يكتب فيها ما له وما عليه، ولذلك قد يخدع الإنسان نفسه بأن يستغل غفلة سواه، وأن يأخذ ما ليس له، وتقول له: ذلك منطق من كان موجودا دون رقيب أعلى منك، أما أن يكون هناك رقيب أعلى يسجل أنفاسك وحركاتك وسكناتك فثق تماما أنك لن تخدعه، فإن حاولت أن تأخذ غير حقك فاعلم أن غفلة ستصيبك فى جهات كثيرة ليؤخذ منك غير الحق مقاصة.

وليعلم كل منحرف فى الحياة أنه سينحرف غيره فيه كما انحرف هو فى غيره، لا يمكن أن يسلم إنسان أطلق لنفسه عنان الحركة فى الحياة إلا وسلط الله قوما يطلقون لأنفسهم عنان حركتهم فى الحياة بالنسبة له. فإذا ما نظرنا إلى من نسميهم منحرفين ومنحرفات، أو غاوين وغاويات، إذا نظرنا إلى تاريخهم، وحسبنا حسابا دقيقا مقدار ما انحرفوا فيه، نجد أن الله بعدالته لا يؤخر ذلك إلى الآخرة أبدا.

فبمقدار ما أغرت المرأة من أناس يزهد فيها، وبمقدار ما استمالت من أنظار وجذبت من نفوس يذل الله آخرتها فى الدنيا، بأن ينصرف عنها الناس انصرافا مزريا شائنا. والذى كان يريد أن يحظى منها بنظرة واحدة لو رآها فى آخرتها لبصق عليها، كل ذلك مقاصة فى الدنيا. والذى يحسن النظر فى الحياة لابد أنه يرى فى محيطه أمثال هذه الصور كثيرا. والذى عاث فى الناس فسادا لو حسب ما عيث فيه من فساد لوجد أن الأمر مقاصة.

والرسول ﷺ ينبهنا إلى قضية هى أخطر قضية فى حركة الحياة. الناس يحسبون الكسب، وينقسمون إلى قسمين: قسم يحب الكسب بحقه، يكدح فى الحياة ليكسب، وقسم يحب الكسب بلا كسب، يتسلط على كدح غيره ليأخذه، وعلى عرق الناس ليشربه، هؤلاء يقول لهم الرسول ﷺ : تنبهوا جيدا إلى قضية سأطلقها فى الكون، وهو لا يطلق قضية ليأتى واقع الحياة ليكذبها؛ لأن ذلك سيكون فتنة لمن اتبعه. يقولون: قال رسول الله كذا، ثم ما رأينا أثرا فى الكون لكذا هذه. فماذا قال فى عمدة حركة الحياة وهو الكسب؟ « **من أصاب مالا من تهاوش أذهبه الله فى نهابر** »، يعنى

فى أمور تأتيه فلا يخلص منها إلا بإنفاق هذا المال. يسلط الله عليه المرض وغيره فيصرف ما أخذه من نهاوش.

والله الذى لا تأخذه سنة ولا نوم لا يمكن أن يدع مستغلا لمجهود خلق دون مقاصة. يقول له: أنت استغللت مجهود خلق، وسيفتح الله عليك ما شاء من الأبواب ليأخذ منك ما أخذته من غيرك، ولذلك لا يؤخر الله هذا الأمر إلى الآخرة لأن حركة الحياة تخمد لو تأخر إلى الآخرة، ولم ير الناس مصارع القوم الذين استغلوا ضعاف الناس، وتفسد حركة الحياة.

إذن فالذى يخدع لا يخدع إلا نفسه، ولذلك يظن الناس أنهم يخدعون الله. نقول له: أنت تخادع والله يخادعك، ولو قارنت خداعك بخداع الله ما استطعت، ويفتح الله لك أبوابا تنفق فيها ما أخذت مما لا تستحق، إذن هذا نظام الكون.

ونظام آخر يشيعه الله فى الكون. وهو أن الإيمان أَمْنٌ، ومعناه: أن كل شئ يصيبك من غير حركة منك لابد أن تقدر فيه الخير، وما دمت تقدر فيه الخير فطاقتك الفكرية لن توزع فى الحزن أبدا. فالحق سبحانه جعل للمادة تكوينا طبيعيا قواما. المادة التكوينية الطعام﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا** ﴾[1]. والرسول يعطينى مذكرة تفسيرية لقوله ﴿ **وَلَا تُسْرِفُوا** ﴾. فيقول: « **نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع**».

هات إنسانا لا يأكل إلا إذا جاع، وإذا أكل لا يشبع، ثم يصاب فى مادته بشئ يفسد أى جهاز فيه، أبدا. ولكننا نجد الآلام من مخالفة هذا فى المسألة المادية وفى المسألة المعنوية كالحركة العقلية والوجدانية والنفسية، يقول الحق كذلك:﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا**﴾[1] لو نظرنا فى اقتصاديات الحياة لوجدنا أن الرسول حينما شرع « **لا نأكل حتي نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع** » فهذا هو المستوى الرفيع فى الأطعمة،لأن الإنسان إذا جاع فأى طعام يكفيه، أما تعقيد الأطعمة وكثرتها مع الشبع فيصيب النفس بالملل فنحمل أنفسنا على الأكل.

فيه فرق بين أن تحملك نفسك لتأكل، وبين أن تحمل نفسك على الأكل. قوام الحياة

---

(١) سورة الأعراف، من الآية: ٣١.

أن تحملك نفسك لتأكل، فإذا جعت فأى كسرة تكفيك، والعربى فطن إلى هذا فقال: «نعم الإدام الجوع » فالجوع يجعل الإنسان يقبل على الطعام بنفس راضية. إذن ماذا يجعل الطعام غير مقبول أمامى؟ هو أنى أحمل نفسى على الأكل أريد مشهيات.

جرب وادخل بيتك وأنت جائع، وفى البيت ديك رومى لم ينضج، فإنك ستبحث عن بقايا طعام كان منذ أمس وتأكل بشهية ولذة، حقا نعم الإدام الجوع.

ما الذى يتعبنا اقتصاديا؟ الذى يتعبنا هو الترف. أن أريد من نفسى أن تأكل، لا أن نفسى هى التى تريد أن تأكل، فالرسول ﷺ قال: « **فإن كنت ولابد آكلا فثلث لطعامك، وثلث لشرابك، وثلث لنفسك** » ماللنفس وللمعدة؟ إن المعدة إذا امتلأت ضغطت على الحجاب الحاجز، والحجاب الحاجز يضغط على الرئة فيضايق التنفس. معنى الضغط على الرئة تقليل حجمها. أى أن الهواء الذى يدخلها يكون قليلا، إذن فالحق حين يعلم رسوله فلا يترك معنويات الحياة دون تعليم.

●●●

قمة السماحة الإسلامية

كيف عالج الإسلام قضية الإلحاد؟ جاء الإسلام والعالم معسكران: معسكر ملحد بالله، لا يؤمن إلا بالمادة، ومعسكر يؤمن بالتقاء السماء بالأرض فى منهج يحمله رسل الله إلى خلق الله. فكان الإسلام منطقيا مع واقع الحياة. استقبل كل أمر بما هو أهله استقبل الإلحاد بلا هوادة، وعاداه عداوة سافرة؛ لأن الخلاف بين الإسلام والإلحاد إنما هو فى قمة التدين، وهو وجود إله مدبر لهذا الكون.

وواجه الآخرين الذين يؤمنون بوجود الله وبوجود رسالة من السماء إلى البشر، وهم أهل الكتاب، كيف واجه الإسلام أهل الكتاب من يهود ونصارى؟ استقبلهم بسماحة وسلام وأمن. فذكر كل الخواص الكريمة التى كرم الله بها رسولى الديانتين. كرم موسى تكريما لا حد له، وعيسى كذلك، ونفى عن عيسى كل ما يمكن أن تزن به أو تتهم به أمه، كرم الرسولين تكريما، ليقر مبدأ التقاء السماء بالأرض.

ولذلك نجد أن الفرس الذين كانوا يمثلون المجوسية والإلحاد، والروم الذين كانوا أهل الكتاب كان أقربهم إلى قلب رسول الله ﷺ وقلوب المؤمنين أهل الكتاب، فلما نشبت المعركة بين الروم والفرس حزن رسول الله ﷺ وحزن المؤمنون مع رسول الله؛ لأن العداء بين الملحدين والمسلمين فى القمة، ولكن الخلاف بين المسلمين وبين أهل الديانتين الأخريين حول تصور الإله. أما التقاء السماء بالأرض، وخضوع الأرض لمنهج السماء فأمر متفق عليه.

ولذلك كان قلب رسول الله ﷺ وقلوب المؤمنين مع أهل الكتاب، وفى ذلك ينزل القرآن ليدل على أن الإسلام وعقل الإسلام أحب الذين كفروا بمحمد، ولكنهم مؤمنون بالله، وفضلهم عن الذين كفروا بالله.

إذن فعصبية محمد ﷺ لربه أقوى من عصبيته لنفسه؛ الذين كفروا به أقرب إلى قلبه من الذين كفروا بالله، ولذلك حزن رسول الله ﷺ حينما غلب الفرس الروم،

ونزل بذلك القرآن: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾(١).

إذن فنصر أهل الكتاب على المنكرين للألوهية يجب أن يفرح به المؤمنون بالله، لأننا مؤمنون في القمة، وإن كنا مختلفين في الرسول الذي بلغ، وهم قد وقفوا من محمد موقف النكران، ومع ذلك فقلوب المؤمنين معهم، وبشارة الله للمؤمنين بأن الله سينصر المؤمنين بالله وإن كانوا كافرين بمحمد، فقال: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾(٢).

فهل رأينا سماحة في الكون أحلى من هذه السماحة؟ أن تقول: قلوب المؤمنين بمحمد مع المؤمنين بالله وإن كانوا كافرين بمحمد.

وشئ آخر، كيف يتأتى لرسول الله وهو النبي الأمي في الآية الكريمة أن يصدر حكما في نهاية معركة بين أكبر قوتين في الأرض: قوة فارس في الشرق، وقوة الرومان في الغرب؟ كيف يمكنه أن يحكم بحكم، ويفصل في معركة، ويحدد الحكم بنصر الروم ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾. من يستطيع أن يحدد الحكم بنهاية المعركة بين قوتين وبأنها تكون في بضع سنين؟ لو أنه كان حكما في الوقت لقلنا إن محمدا ﷺ كان عنده أخبار بأمداد ستصل إلى الروم لينتصروا على الفرس. ولكن تحديد الحكم في بضع سنين شئ رهيب، إنه شئ رهيب حقا أن يحكم في انتصار الروم على الفرس في بضع سنين، أي من سبع سنين إلى تسع سنين.

كيف يتأتى له أن يحكم في قضية معركة ليس هو طرفا فيها أولا، وثانيا هو لا يعلم ما يجد في البضع سنين من قوة هذا أو ضعف هذا، ثم يطلقها قضية مؤكدة: أن الله سينصر الروم في بضع سنين. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾(٢) وفعلا تم النصر في بضع سنين، وصادف ذلك نصر المسلمين في بدر الكبرى.

هل حكم النبي ﷺ على كل اليهود بشئ يكون نقيصة فيهم؟ هل حكم على كل

---

(١) سورة الروم، الآيات من: ٢ ـ ٥.

(٢) سورة الروم، الآيتان: ٤ ، ٥ .

النصارى بشئ يكون نقيصة فيهم؟ لا، بل إنه ﷺ احترم الواقع. كثير من اليهود يملكهم الحق، ويملكهم الدليل، ولذلك قال لنا: ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا** ﴾ (١). فقد أنصف المؤمنين باليهودية والمؤمنين بالنصرانية، لماذا ؟ لأنه لو قام على كل يهودى بالحكم ضده، وعلى كل نصرانى بالحكم ضده، لقال الذين تراودهم نفوسهم بالإيمان بمحمد ﷺ : كيف يحكم علينا هكذا ونحن نؤمن بالحق؟ فهو لم يظلم أحدا من أهل الكتاب، بل قال: منهم من ينفذ أحكام الله، ومنهم من لا ينفذ أحكام الله، كالمؤمنين بمحمد تماما.

ولذلك يجب أن يفطن أهل الكتاب إلى هذه القضية، فلا يجعلوا العداء بينهم قوة لأهل الإلحاد. ويريد الله منا أن يكون منهجه فى الأرض هو السائد، فإن غلب أهل الإسلام على بقعة من الأرض فعلى الرحب والسعة يا أهل الكتاب، فليسعهم الإسلام بسماحته مادام منهج الله محققا.

●●●

(١) سورة آل عمران، من الآية: ٧٥.

من خاف الله...

خافه كل شيء

القرآن إذا عرض شيئا ولم يكر عليه بالبطلان فهو موافق عليه. ولذلك لما قالت بلقيس: ﴿ **إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً** ﴾ ماذا قال القرآن؟ قال: ﴿ **وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ** ﴾(١). فالقرآن يؤيد الحق وإن كان على لسان امرأة؛ لأنها صادفت الحق.

قالت بلقيس: أرسل إلى سليمان هدية، فإن كان هو ومن معه ممن يريدون الخير والمال اقتنعوا بها. فأرسلت الهدية، وقد كان سليمان على خلاف ما ظنت، بل قال: ﴿**أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ** ﴾(٢). وهنا خضعت بلقيس للإيمان، وهنا تظهر ملوكية الإيمان، واستعلاء العقيدة. ماذا قالت؟ أسلمت لسليمان؟ لا، قالت: ﴿**أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ**﴾(٣) هنا عظمة الإيمان مع سليمان؛ لأنه مسلم هو الآخر ﴿ **لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(٣).

فعظمة الإسلام أنك لا تسلم لمساويك، بل تسلم لله رب العالمين؛ ولذلك ساعة يعرض القرآن بعض النماذج يبرز هذه المسألة. فموسى يذهب إلى فرعون، ويجتمع السحرة، ويأتي موسى.

كان الله قد صنع له تدريبا كما صنع لآدم تدريبا في الجنة... لما ذهب عند النار في أول لقاء كان معه عصا فقال الله له: ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ** ﴾(٤). فقال: ﴿**هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ**﴾(٥). وهل كان الله لا

---

(١) سورة النمل، من الآية: ٣٤.

(٢) سورة النمل، من الآية: ٣٦.

(٣) سورة النمل، من الآية: ٤٤.

(٤) سورة طه، الآية: ١٧.

(٥) سورة طه، من الآية: ١٨

يعلم ذلك حتى يسأله؟ لا، بل هو سؤال للإيناس وإزالة الوحشة وتخفيف سلطان الهيبة، كما تذهب إلى صديقك وترى ابنه قد هابك،وتريد أن تتألفه فتقول: ماذا فى جيبك يا ولد. ولله المثل الأعلى.

كان يكفى فى الإيناس أن يقول: هى عصا. ولكن موسى كان يريد أن يطيل زمن الإيناس، فلما رأى أنه زاد اختصر وقال:﴿ **وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ** ﴾[1]. والله سبحانه يقول: هذا هو مدى علمك بالعصا ورسالتها عندك ، أما العصا فلها رسالة ثانية عند الله ﴿ **قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ**﴾[2] المنطق أن يخاف موسى، ولكن الله قال له:﴿**لا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ**﴾[3]. ولو لم يخف موسى لقلنا: إنه سحر.

تنبهوا إلى أن هناك فارقا بين السحر الذى كان عند قوم فرعون، وبين الذى جاء به موسى﴿ **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ** ﴾[4]. إذن أصبحت العصا حية حقيقية. أما الساحر فلا يرى العصا حية. فقوم فرعون يسحرون أعين الناس، أما معجزة موسى فحقيقة. الحقيقة تغيرت فى عصا موسى. أما السحرة فلم يسحروا إلا عيون الناس.

ما الذى جعل السحرة يؤمنون؟ آمنوا لأنهم رأوا العصا حية ولم يروها عصا. وعلموا أن حبالهم مازالت حبالا. حينئذ قالوا: هذا ليس من موسى. هل قالوا آمنا بموسى؟ أو آمنا برب هارون وموسى؟ مع أنهم مهزومون أمام موسى.

هذه هى عظمة الإسلام، فى أنك لا تسلم لى زمامك ولا أسلم لك زمامى، إنما أنا وأنت نسلم زمامنا لله رب العالمين، لا طغيان من واحد على الآخر، فالكلمة لله.

فالذين يفرون من أن يحكم منهج الله حركة الحياة حريصون على أن يستذلوا الناس لمناهجهم. ولو كانوا يريدون الخير حقا نقول لهم: نحن وأنتم نسلم وجوهنا لمن هو أعلى منا، ما هى الغضاضة فى ذلك؟ إذن الإسلام أخذ اسما وأخذ وصفا، وتلك هى ميزة أمة محمد ﷺ .

---

(١) سورة طه، من الآية: ١٨.

(٢) سورة طه، الآيتان: ١٩ ، ٢٠.

(٣) سورة طه، من الآية: ٢١.

(٤) سورة طه، الآية: ٦٧.

وأخذ الإسلام أيضا وصفا آخر، وهو: أن كل أمة محمد امتداد لرسالة محمد ﷺ فمادام لم يعد هناك رسل ولا كتب فكيف تسير الرسالة؟ لابد أن نعلم أن المنهج محفوظ، ولا يريد الله إلا البلاغ فى المنهج، فالعلماء الحاملون للمنهج هم كأنبياء بنى إسرائيل، ولا نريد أن يعتقد الناس أن العلماء هم من لبسوا العمائم ودخلوا الأزهر أوتعاطوا صناعة الدعوة. لا، بل إن كل من علم مسألة من الدين وبلغها فهو عالم بها؛ ولذلك الرسول ﷺ يقول:« **نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها وبلغها، فرب مبلغ أوعى من سامع**». فمادمت تعلم حكما من أحكام الله فأنت به عالم.

هنا يجب أن نلتفت لفتة: أن نحمل الإسلام كعلم، ونحيا الإسلام كتطبيق، ونريد تحقيق الإسلام علما وتطبيقه سلوكا، فهب أننا منينا بقوم أبعدونا عن تطبيق الإسلام كمنهج سلوكى للبشر، ماذا يكون موقفنا؟ موقفنا على الأقل أن نكون أمة تحقيق الإسلام، يعنى نحمل الإسلام كعلم إلى أن يأتينا الله برجل يحمل مبادرة سماوية ويقول: العلم علم، ونريد تطبيق الإسلام. فهل إذا لم نطبق الإسلام نترك علم الإسلام؟ لا. بل نقول: دع هذه الشمعة مضيئة واحذر أن تنطفئ، لعل واحدا يأتى ويأخذ من الشمعة قبسا يصنع منه حريقا.

إذن أمة مصر إن لم تكن حققت الإسلام منهجا وسلوكا فهى مطالبة بنعمة الله عليها بالأزهر أن تحافظ على الإسلام علما وتحقيقا، حتى يأذن الله لمن شاء أن يجرى الخير على يديه فيطبق الإسلام، إياكم أن تقولوا: وما غناؤنا بعلم الإسلام؟ نقول: لا، دع الإسلام محققا وإن لم يكن مطبقا، وبعد ذلك طبق الإسلام فيما ولايتك فيه على نفسك، وكل واحد لو طبق الإسلام فيما ولايته فيه على نفسه لسقط الحاكمون بغير الإسلام وحدهم، ولو أن الحكام يعلمون أن الناس يحبون منهج الإسلام لأنهم يطبقونه فى أنفسهم لتقربوا إلى الشعوب بتطبيق منهج الله.

الحكام يريدون أن يرضوا الشعوب، فلو علموا أن الشعوب عشقت الإسلام وعشقت منهج الله لتقرب الحكام إلى شعوبهم بتطبيق المنهج، مهمتنا كمصر أن نسعى ونجاهد فى تطبيق الإسلام، أو نحقق الإسلام علما يجلى عقيدة الإسلام ويبين حقيقة

القرآن، ويبين أن الله كنز فى القرآن كنوزا سيفض الزمن أسرارها إلى أن يأتى ميلادها، لأنه تعرض لأشياء لم تخطر أيام نزول القرآن على قلوب البشر.

عملنا الآن هو أن نجلى الإسلام عقيدة وعبادة وتعاملا، والعقيدة كما قلنا هى: الإيمان. والإيمان هو : اطمئنان القلب إلى قضية ما، بحيث لا تطفو لتناقش من جديد، إذا طفت لتناقش من جديد لا تبقى إيمانا، إنما هى مشروع إيمان، وفرق بين أن تؤمن بالأشياء متعقلة، وبين أن تؤمن بها متصورة، المطلوب منك أن تؤمن بها متعقلة؛ لأن التعقل يعطى الإيمان، والإيمان لا يكون بالمحسوس أبدا، لابد أن يكون بأمر غيبى، ومادام الإيمان يكون بأمر غيبى فهو تابع لقوة دليله. فإذا استقر صار يقينا.

واليقين مراحل: مرة يكون علما اسمه: علم اليقين، ومرة يصير عينا اسمه: عين اليقين حين ينتقل إلى شئ من الحس، ومرة يكون حقا اسمه: حق اليقين، فاليقين (الإيمان) يمر بهذه المراحل الثلاث: علم وعين وحق. ما معنى هذا؟

كنت ضربت مثلا لأبنائى. كنت سافرت إلى أندونيسيا فقلت لهم: هبوا أنى رأيت فى أندونيسيا فاكهة حجمها حجم البطيخة، ولونها لون البرتقال، وطعمها طعم البرتقال، ورائحتها رائحة التفاح، هذا علم يقين، لأنهم يثقون بكلامى كأستاذ لهم. فإذا أحضرتها أمامهم تبقى عين يقين. شققتها وأعطيت كلا منهم قطعة وذاقوها تصبح حقيقة يقين.

هذه أعلى مستويات اليقين، ولذلك الرسول ﷺ لما سأل حارثة : « **كيف أصبحت ؟ قال: أصبحت مؤمنا حقا. قال: إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال: عزفت نفسى عن الدنيا، فاستوى عندى ذهبها ومدرها (يعني حجارتها). وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً، وإلى أهل الجنة يتنعمون، وإلى أهل النار يعذبون. قال: عرفت فالزم** ». هذه حقيقة اليقين، كما بينها رسول الله ﷺ .

والحق سبحانه لما أراد أن يبين هذه المراحل اليقينية قال: ﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ**

الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝﴾(١) ستكون الجحيم عين يقين أمامكم.

واقتصر فى هذه السورة على هاتين المرحلتين: علم اليقين، وعين اليقين.

وفى سورة الواقعة أعطانا حقيقة اليقين فقال: ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۝﴾(٢).

لماذا جاء بحق اليقين فى حق الكفار، ولم يجئ به فى حق المؤمنين؟ لأن المؤمنين مكتفون بعين اليقين، أما الكفار فشاكون لا يؤمنون إلا بحق اليقين.

●●●

(١) سورة التكاثر، الآيات من: ١ ـ ٨.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٩٢ ـ ٩٦ .

قصص من القرآن

المستقبلون لدعوة الإسلام

قسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ المستقبلين لدعوة الإسلام فى كتابه وعلى لسان سيدنا محمد ﷺ إلى أقسام ثلاثة: قسم يؤمن، وقسم يكفر، وقسم ينافق، فهو مؤمن اللسان كافر القلب.

والمؤمن حافظ على انسجام ملكات نفسه، فلم تتنازع ملكاته لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فليس له لسان يقول وقلب ينكر.

الكافر منسجم الملكات ظاهرا:

والكافر وإن انسجم مع نفسه فى ظاهر الأمر، بأن جعل ما فى قلبه على لسانه، فإنه لم ينسجم مع نفسه فى دار البقاء، وإن لم يتمزق فى دار الفناء، إذن فهو منسجم القلب واللسان معا، ولكن ذلك الانسجام لن يدوم له طويلا؛ لأن عمره فى الحياة قليل، ومهما طال به الزمن فسيلقى ربه الذى كفر به، وحينئذ يجد أنه كان مخدوعا فى انسجام ملكات نفسه.

كان مخدوعا فى أن قلبه كان قد انسجم مع لسانه. لأن يجد كل أبعاضه فى الآخرة تنتقض عليه انتقاضا يفضحه، يشهد عليه جلده، ويشهد عليه لسانه ﴿ **وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾(١).

فأول تمزق له فى وحدات ملكاته: أن جلده انتقض عليه، والجلود نهاية الظرف المحيط بالملكات. ويسبق ذلك أن تشهد عليهم أيديهم، وأن تشهد عليهم ألسنتهم، وأن تشهد عليهم أرجلهم بما كانوا يعملون. فأى شئ من ملكاتهم لم يتناقض معهم بعد؟

لقد حافظوا على انسجام ملكتين فى الدنيا: القلب، واللسان، ولكن الله بدأهم بتمزيق ملكات نفوسهم، وشهد الكل على انتقاض بعض الملكات على بعضها الآخر:

---

(١) سورة فصلت، من الآية : ٢١.

الجلود تشـهد، والألسنة تشـهد، والأيدى تشـهد، والأرجل تشـهد، وهذا يؤكـد أن كل أبعاض نفسه قد انتقضت عليه، لأنه بين يدى من سلب منه القدرة عليه فى الدنيا.

وذلك لأن الله حينما خلق الإنسان بهذه الأبعـاض، وخلقه بهذه الأجهزة، جعل له إرادة وسيطرة على الأجـهزة، فهى تخـضع لإرادته وإن كان عاصـيا لربه، رجله تحب أن تمشى إلى المسجد فيـمشى، وإلى الخمارة فيمشى. ويده تربـت على كتف يتيم، ويضرب بها إنسـانا، ظلما، فهـى منقادة له فى هذه وفى تلك؛ لأن الله سـخر له الكون ليخـدمه، وسخر له أبعاضه لتكون تحت إرادته، فهو مغرور لذلك.

ولقد ضـربنا مثـلا من قبل بأن قـوة من الجيش تذهب إلى مـعركة ومـعهـا قائدها، فالجنود بحكم قانونهم العـسكرى يطيعون أمر القائد، لا يختلفـون عليه أبدا وإن أمرهم بخطأ.

لكن حينمـا يخرجون مع قائـدهم إلى السلطة العليا يقولون: أرغـمنا وكنا كارهين وهكذا. أيضا تكـون أبعاض الكافر أمـام الله؛ لأن الله حينئذ يـحميـهم من إرادة الكافر عليهم ، ولم تبق إلا إرادة الله.

المنافق ممزق فى الدنيا والآخرة:

والمنافق تمزق مع نفسه فى الدنيا، وسيتمزق مع نفسه فى الآخرة.

●●●

دعوة الناس إلى الإيمان بالله

بعد أن شرح الله تعالى قضية استقبال الدعوة بهذه الصورة وجه الحق دعوته للناس جميعا بأن يؤمنوا بالله إيمانا يردون به الجميل بإنعامه عليهم وجودا من عدم، وإمدادا باللطف، وقيوميته دائمة. ثم جاء بالأدلة التى تثبت له استحقاقه لهذا الإيمان.

دلائل استحقاق الله للإيمان به:

دعا الله الناس إلى الإيمان به، وأقام الأدلة التى لم يدع أحد أن واحدا منها له؛ لأننا إذا استقرأنا الكافرين لم نجد كافرا على ما فيهم من لدد الكفر وعناد النكران ادعى أنه خلق نفسه، ولم نجد واحدا يدعى أنه خلق السماء، ولم نجد واحدا يدعى أنه خلق الأرض، ولم نجد واحدا يدعى أنه أجرى الأنهار وأنزل الماء من السماء.

كل ما أثبته الله لنفسه لم نجد أحدا ادعاه لنفسه أبدا. لقد طرح الله تعالى هذه الأمور التى أثبتها لنفسه قضية للعقل ليستقبلها، فإن كان قد ادعاها أحد فليكن جدل بيننا وبينه، ولكن لم يدعها أحد ، والدعوى إذا ادعاها مدعيها ولم يقم من يناقضه فهى له إلى أن يوجد المناقض ، إلى أن يوجد مناقض يقول: أنا خلقت السماء، أنا الذى خلقتكم أنا الذى أنزلت الماء من السماء، أنا الذى أخرجت الثمرات من الأرض. إلى أن يوجد المعارض يكون الأمر لمن ادعاه أولا.

إذن فقد طرح الله دعاوى لم يدعها أحد،وقلنا فى ضرب المثل لهذه المسألة: هب أننا هنا مجتمعون، وهب أننا وجدنا حافظة نقود وجدت هنا، فقام واحد من بيننا وقال: هى لى. ولم يدعها أحد معه، فلمن تكون الحافظة؟ تكون لمن ادعاها طبعا؛ لأنه لم يوجد له معارض.

إذن فالله طرح دعاوى ولم يدعها أحد غيره، ولم ينقضها أحد، إذن فهى له إلى أن يثبت المناقض، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرا !! .

لابد من الواسطة فى التلقى عن الله:

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما تكلم فى مسألة الإيمان به والعبادة له لأنه فعل وفعل ولم يدع أحد مناقضته، يريد أن ينبهنا إلى أنكم أيها الناس لن تتلقوا عنى مباشرة، بل لابد من واسطة فى التلقى عنى. لماذا؟ لأن القدرة الحادثة لا يمكن أن يكون لها جلد على التلقى من القدرة الواجبة مباشرة، فكان لابد من أن يوجد بين الناس الذين يأمرهم الله أن يعبدوه ويؤمنوا به وبين المعبود ـ وهو الله ـ وسائط هذه الوسائط تهئ طريقة الحمل من القوى إلى الضعيف.

ولهذا فقد تلقى عن الله مباشرة ملك، بل وملك مقرب هو جبريل؛ فليس لمطلق ملك أن يتلقى عن الله، وجاء جبريل لا ليعطى أى فرد من الناس ما أخذه عن ربه بل لمصطفى من البشر يتلقى عنه، أعد هذا الإعداد الخاص الذى يؤهله لهذا التلقى.

ونحن كبشر فى صناعاتنا نستقبلها بهذه الأشياء التى تقرب الأقوى من القوى، والقوى من الضعيف. فهب أننا نريد ضوءا خافتا نجعله دائم الاستعمال فى البيت حتى إذا ما استيقظت لم تتعثر فى متاع بيتك، ويهديك هداية هينة إلى أن تصل إلى النور القوى فتضيئه، وهذا الضوء الضعيف هو الذى نسميه (السهارى). والسهارى لا يقوى على تحمل التيار القوى من الطاقة القوية، فماذا نصنع؟ قالوا: لابد أن نصنع آلة تستقبل التيار القوى ثم توصله مخففا إلى المصباح الضعيف الاحتمال، وهذه الآلة هى التى نسميها « ترانس ». وحينئذ يصبح الضعف المقصود قوة فى بابه.

فإذا كان البشر يصنعون توازنا بين قوة عليا وقوة ضعيفة، إذن فالله تعالى عاملنا بنفس ما نعامل به أنفسنا، لم يشأ أن يخاطبنا جميعا خطابا مباشرا؛ لآن هذا أمر لا يمكن أبدا ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً**﴾(١).

وقد ضرب الله لنا مثلا من ذلك فى سيرة سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ حين طلب أن يرى ربه. فقال:﴿ **لَن تَرَانِي** ﴾(٢). أى : لا تقدر بتكوينك هذا أن ترانى، وأراد أن يدلل

---

(١) سورة الشورى، من الآية: ٥١ .

(٢) سورة الأعراف، من الآية: ١٤٣ .

على ذلك فقال: ﴿ **لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا** ﴾(١). فإذا كان موسى قد خر صعقا من رؤية المتجلَّى عليه فكيف به لو رأى المتجلي؟!

إذن فالمقامات لابد أن توجد، ولذلك يقول الله: ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ** ﴾(٢). فهناك رسل من الملائكة، ورسل من الناس أيضا، الملائكة تأخذ عن الله، ثم يعطون رسل البشر المبلغين عن الله، ويصبح الرسول البشر هو مبلغ البشر عن الله، قضية الإيمان بالله قامت عليها الأدلة، وبقيت قضية المبلغ عن الله.

●●●

---

(١) سورة الأعراف، من الآية: ١٤٣.

(٢) سورة الحج، من الآية: ٧٥.

قضية الرسول

متاعب الوحي وجماله:

إن الرسول لابد أن يكون معدا إعدادا يهئ له الاستقبال من الملك، ومع أن الله تعالى قد أعد الرسول هذا الإعداد فإنه حينما باشر مهمته حدث له ما حدث من متاعب جسام، ألم يقل: « **زملونى** »؟ ألم يقل، « **دثرونى** »؟ ألم ترجف بوادره؟ ألم يقل : « **ضمنى ضمة حتى بلغ منى الجهد** »؟ ألم يتفصد جبينه عرقا؟ ألم يثقل جسده حتى كادت رأسه أن ترض فخذ عمر بن الخطاب؟ متاعب شديدة كان يعانى منها الرسول ﷺ مع أنه أعد هذا الإعداد، فكيف به إذا كان من عامة الناس ممن لم يعدوا هذا الإعداد؟

اتصال الملك به جعله فى تعب شديد إلى أن ألف ذلك التعب!! وكيف ألفه إذن؟

إن الإنسان إذا صادفته مشقة تؤلمه تلك المشقة فى حينها، وحين يهدأ من متاعب المشقة ينظر إلى النتيجة التى حصل عليها من المشقة، فإن كانت النتيجة خيرا فعلى مقدار عظمة هذا الخير ينسى المشقة، بل ويشتاق إلى مثلها ليحصل على مزيد من النتيجة.

والرسول ﷺ ذاق حلاوة الوحى، فلما هدأ من المشقة اشتاق إلى الوحى مدفوعا بذوق النتيجة، واشتياقه للوحى جعل فيه طاقة الجلد على انتظاره وعلى ترقبه. وترقبه وانتظاره نوع من التخدير للوعى الحسى، بعد ذلك يواجه الوحى وقد ألفه وألف مشقته. ولذلك جاء الوحى بعد ذلك هينا لينا. لماذا؟ لأنه ﷺ تعب أولا، وبعد أن تعب ذاق حلاوة الوحى، وهذه علة فترة الوحى. لماذا فتر الوحى عن رسول الله أول الأمر؟ فتر الوحى ليهدأ من المتاعب التى صادفته، وتبقى له حلاوة الوحى التى تلقاها خالصة من المتاعب، فيشتاق هو للوحى.

وحين يشتاق للوحى توجد فيه طاقة مستقبلة باستصحاب الحلاوة المقبلة، وما دام هناك طاقة مستقبلة باستصحاب حلاوة مقبلة فلا تعب.

استصحاب النتائج ضرورة فى الدين:

فاستصحاب النتائج أصل فى سلامة السلوك الإسلامى، فالذى يعصى الله لا شك فى أنه حين المعصية لم يقرن المعصية بتصور العقاب عليها، والذى يتكاسل عن الطاعة لم يقرن كسله بثواب الطاعة. فالذى يمتنع عن الطاعة، والذى يفعل المعصية إما جهلاء، وإما لم يقرنوا الثواب على الطاعة بالطاعة عند الكسل عنها، والعقاب على المعصية بالمعصية عند فعلها.

ولو أن واحدا استحضر الجزاء من الله، وبقاء الجزاء من الله، وخلود الجزاء من الله، ثم قرنه بما تعطيه الشهوة، لما جعل لهذه الشهوة مدخلا؛ لأنه قارنها بالجزاء عليها. وقد كنت ضربت مثلا لطلاب الجامعة فقلت: هب أن شابا عنده شره جنسى، ثم جاءت له فتاة سويدية جميلة جدا، ووجد المكان الذى يستره، ثم قلنا له: هذه الفتاة لك، ولكن بعد أن تقضى شهوتك معها سندخلك التنور المحمى. فساعة يرى التنور تنقطع شهوته.

إذن فالذى يجرئ الناس على المعصية أنهم لا يقرنون الجزاء على المعصية بالمعصية، بل يأخذون المعصية فقط، والذى يكسل عن الطاعة لا يقرن الجزاء على الطاعة بكسله عنها. ولو أنه قرن الجزاء على الطاعة لقويت طاقته على عمل الطاعات، فالطالب الذى جد فى دروسه إنسان قرن نتيجة علمه بعمله وقال: سأصبح إن شاء الله رجلا لى منزلتى فى الحياة، ومعى شهادة عليا، والذى قرن الجزاء، على الجد بالجد يهون عليه أمر الجد .

الرسل بشر مؤيدون:

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ لابد أن يثبت صدق هذا الرسول، والرسول لابد أن يكون بشرا، فلو كان أرقى من بشر ما صلحت به الأسوة. إذا قال لى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾[(١)] ، أقول: لا أقدره لأنه من طبيعة غير طبيعتى، هذا ملك وأنا بشر، إذن فمن أجل الأسوة لابد أن يكون الرسول من نفس المرسل إليهم ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ**﴾[(٢)] وقد عرض الله تعالى هذه القضية فقال: ﴿**وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن**

---

(١) سورة الأحزاب، من الآية: ٢١.

(٢) سورة التوبة، من الآية: ١٢٨

يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾(١) هذا هو منطق الغباء. وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً** ﴾(٢).

إذن فالذين يدعون أن المسيح إله أو ابن إله نقول لهم: إن كان فقد فقدت به الأسوة؛ لأنه لا يستطيع أن يطلب منا أن نتأسى به في العمل، نقول له: لا، أنت إله أو ابن إله فكيف نستطيع أن نعمل مثلك؟! انهدمت قضية الأسوة إذن.

لماذا وجدت الفتنة في المسيح؟ لأنه انعدم فيه عنصر الذكورة، وبقى له عنصر الأنوثة الفتنة فيه أولى أو الفتنة في آدم الذى فقد عنصر الذكورة والأنوثة أولى؟ كان أولى أن تكون الفتنة في آدم، ولذلك فالقرآن يقول هنا: ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ**﴾(٣).

فإن كنتم قد فتنتم في المسيح لأن عنصر الذكورة ممتنع فيه فكان يجب أن تفتنوا بآدم أكثر؛ لأن عنصر الذكورة والأنوثة ممتنعان فيه.

إذن لابد أن يكون الرسول بشرا، ولابد أن يمده الله بآية، وهذه الآية هي التي نسميها بالمعجزة، وهذه المعجزة هي التي تثبت قدرة الحق على الخروج على قوانين الأسباب ونواميس الكون، كل شئ له قانون. وهناك قانون السببية والمسببية، وقانون السببية هذا ينخرم في الرسالة. لابد أن يؤيد الله الرسول بمعجزة.

لم يكن خط الله سبحانه في إخراج إبراهيم من النار أن ينجيه، بل كان خطه أن يخرق قانون السببية لإبراهيم؛ لأنه لو كان خطه أن ينجيه فقط كان لا يمكِّنهم منه، أو كان يرسل المطر على النار ليطفئها، لكن لو صنع الله ذلك لقالوا: نواميس حالت بيننا وبينه. لو لم يمكنهم منه لقالوا: لو أمسكناه لفعلنا. ولو أمطرت السماء لقالوا: لو لم تمطر لأحرقناه.

لكن الله يقول لهم: أمسكوه، والنار تتوقد، والسماء لا تمطر، وأنتم متمكنون من

---

(١) سورة الإسراء، من الآية: ٩٤.

(٢) سورة الإسراء، من الآية: ٩٥.

(٣) سورة آل عمران، من الآية: ٥٩.

وضعه فى النار؛ لأن الله لم يكن خطه أن ينجى إبراهيم، ولو كان خطه أن ينجيه لكانت هناك وسائل كثيرة. إنما خط الله أن تبقى النار نارا بقانون الإحراق فيها، ويلقى إبراهيم فيها، وبعد ذلك يأمر خالق الأسباب بأن تتعطل الأسباب ﴿ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ**﴾(١).

إذن فالمعجزة لابد أن تكون أمرا بخرق الأسباب والنواميس، لتكون دليلا على صدق الرسول فى الرسالة، والمعجزة لابد أن تكون من جنس ما نبغ فيه القوم المرسل إليهم. والعرب المباشرون لتلقى الدعوة كانت مهمتهم الفصاحة، وملكتهم البيان، فمعجزتهم كانت من جنس ما أتقنوه، وهى (القرآن).

●●●

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٦٩ ، ٧٠.

قضية القرآن

ارتياب الكفار فى القرآن:

لما جاء الرسول بمعجزته المناسبة لما ألفه قومه وهى القرآن ارتاب الكفار فى القرآن، قال الله تعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (١).

أمامنا الفعل (كنتم) والريب: أى الشك، وكلمة (عبدنا)، وكلمة (نزلنا) لا أنزلنا. هاتوا أنتم مجتمعون سورة مثل القرآن، وأنتم محكمون بأن تختاروا من يشهد لكم، نحن لا نأتى بشهود، أنتم الذين تأتون بالشهود بشرط أن يكون الشهود من دون الله، أى لا يأتى واحد ويقول: يشهد الله بكذا وكذا. هناك من يقول: يشهد الله، ونحن نقول له : لا، لأن الله غيب، وشهادته غيب، وأنت الذى أخبرت أن الله يشهد، فمن أدرانى أن الله شهد؟ فشهادة عباد الله حينئذ أقوى من قولكم: يشهد الله.

إذن هنا لا تقبل شهادة الله منكم، وتقبل شهادة عبيد الله فى مثل هذه الأمور، لأن شهادته مدعاة، وشهادته غيب لا يطلع عليه أحد، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ** ﴾(٢).

إذن إشهاده لله لا ينفعه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٢٠٤ ـ ٢٠٦.

وعندنا في الآية قضية « الكون » أي: كان وكنت وكن. وقضية الريب، وقضية السورة من مثله.

حينما نسمع كان أو كنتم ـ أي كان وأخواتها التي هي: أصبح، وأمسى، وبات، وظل، وما فتئ، وما برح، وما انفك ـ نقول: إن (كان) هذه لا تكتفي بمرفوعها، بل تريد خبرا. هي وأخواتها هكذا. فلماذا؟ إذا استقرأت القرآن تجد فيه (كان) أحيانا بلا خبر، مثل قوله تعالى: ﴿ **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ** ﴾(1) ذو عسرة اسم كان، ولا خبر لها. هنا اكتفت كان بمرفوعها. وقوله تعالى: ﴿**فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ**﴾(2). أين خبر أمسى وأصبح؟ لا يوجد، لأنهما اكتفتا بمرفوعهما. (وكان) الناقصة فقط هي التي تحتاج إلى خبر.

الفعل يريد عنصر الزمان وعنصر الحدث. فكتب مثلا. الكتابة هي الحدث. والزمن الذي تستغرقه الكتابة هو الزمان وهو هنا ماض، (يكتب) حدث الكتابة حصل في الزمن الحال. و (اكتب) حدث الكتابة سيحصل في الزمن المستقبل. والحدث نوعان: مطلق، ومقيد. وحدث الأحداث بالنسبة للإنسان هو الوجود. كان الشئ: يعني وجد. إنما على أي هيئة وجد؟ ننظر في قولنا: كان محمد مجتهدا. أثبت أنه وجد، هذه مرحلة، ثم جاء حدث آخر طرأ على الوجود هو الاجتهاد. فإذا كان الفعل الأول مطلق الوجود فقط، بدون فعل آخر طارئ على الوجود تكون (كان) تامة.

فقوله تعالى: ﴿ **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ** ﴾(1). يعني: وجد واحد ذو عسرة. لانريد خبرا. أما قولنا: كان محمد مجتهدا: فلها حدثان في الوجود والاجتهاد. فإن اكتفيت بالحدث الأول فقط ولم ترد حدثا ثانيا فهي التامة، ومعناها: وجد، لكن إذا أردت حدثا ثانيا فقلت: كان زيد مجتهدا فأنت تريد أن تثبت له أولا الوجود، وتريد أن تثبت له شيئا آخر طرأ على الوجود الأول، فتكون ناقصة، نكملها

---

(1) سورة البقرة، من الآية: ٢٨٠.

(2) سورة الروم، الآية: ١٧.

بالحدث الثانى، فنقول: كان زيد مجتهدا، يعنى اجتهد زيد فى الزمن الماضى. أنت تثبت وجوده فقط، أو تثبت وجوده ووجود حدث آخر هو الاجتهاد. فإن كان الفعل يدل على الوجود فقط فهى التامة، وإلا فهى ناقصة. (تصبحون) يعنى: دخلتم فى الصبح فقط. (تمسون) يعنى: دخلتم فى المساء فقط. إنما أصبحوا وأمسوا على أى كيفية؟ لا أريد شيئا. فإن أردت شيئا آخر فلا بد من الحدث الآخر وهو الخبر. تقول: أصبحوا مسرورين، وأمسوا فرحين.

إذا كان هناك فسحة بين الزمن الماضى الذى حصل فيه ريب الكافرين فى القرآن وبين المستقبل الذى يمكن أن يأتوا فيه بسورة فهناك فسحة فى الفعل، وعادة نحن نقسم الزمن إلى ماض، وحال، واستقبال. وكلمة (حال) تقسيم اعتبارى؛ لأنك حينما تنظر إلى الفعل « يأكل» ترى أنه يأكل فى الحال. فالعملية الأكلية المقابلة للياء أصبحت ماضية. والمقابلة للهمزة صارت حالا، والمقابلة للكاف واللام تصبح مستقبلة. إذن الفعل لا ينفك عن الأزمنة الثلاثة، أى أن أبعاضا منه ماضية، ومنه ما هو حال،ومنه ما هو مستقبل، فسموا المضارع استقبالا تسامحا.

إذن الحال أمر اعتبارى، ولكن هناك فسحة، والفسحة تمكين للمعارض من وقت يتروى فيه إن كنت فى شك أعطيناك فسحة من الوقت، ولم نأخذك على غرة.

والريب: الشك. والشك نوع من النسبة. والنسبة تنقسم إلى ستة أقسام: إما مجزوم بها أو غير مجزوم بها. فإن كانت مجزوما بها فهل الواقع كذلك أو لا؟ فإن كانت غير واقعة فصاحبها جاهل، فالجاهل جازم بنسبة غير واقعة. وإن كانت واقعة، فإن استدل عليها فهى علم، وإن لم يستدل عليها فهى تقليد، وإن كانا متساويين فهو الريب. وإن كانت واحدة راجحة فالراجحة: ظن، والأخرى: وهم.

فالريب إذن فى النسب المتساوية، فلا هى واقعة ولا هى غير واقعة. ريب فى ماذا؟ فيمن أنزل عليه القرآن، أو فى القرآن الذى نزل؟ نص الآية ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا** ﴾(١) . إذن الريب فيما نزل. أما المنزل عليه فلا كلام لكم فيه، كلامكم

---

(١) سورة البقرة ، من الآية: ٢٣.

فيما نزل.

تناقض الكفار في الشك:

ولكنكم يا أهل الريب ستتناقضون؛ لأنكم ستقولون بعد ذلك: ﴿**لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾(١) إذن فقد نفيتم الريب فى القرآن وأثبتم الريب فيمن نزل عليه القرآن. هذا اضطراب فى التقابل، والاضطراب فى التقابل إفلاس فى الحجة. مرة تقولون: الريب فيما نزل، ومرة تقولون: الريب فيمن أنزل عليه. ما هذا التناقض؟ القرآن يقول: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا**﴾(٢). ويثبت أنكم ارتبتم فى القرآن، وأما المنزل عليه فلا كلام لكم فيه، هو صادق، وهو أمين. وبعد ذلك قلتم: ﴿**لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾(١). أى: لو كان منزلا على آخر غير محمد. فأنتم نقلتم النقد، وما دمتم نقلتم النقد فهذا هو الاضطراب فى المقابلة.

واضطربتم ثانيا فقلتم: هذا سحر. ولنا فى الرد عليهم: لو كان سحرا ويسحر الناس، فلم لم يسحركم أنتم؟ لوكان سحرا لسحركم مع الناس، فبقاؤكم دون سحر دليل على أنه ليس بسحر.

ثم قالوا: إنه شعر. ونقول: فيكم الشعراء فلم لم يقولوا ذلك؟!. قالوا: كهانة. ونقول: فيكم الكهان. كل باب مردود عليه.

بقيت مسألة بسيطة: معنى (فى ريب) يعنى أن الله لم ينزل القرآن. إذا نفيت الفاعل فلا ضرورة أن ينفى الفعل. نقول: ماسرق فلان من عندى شيئا، فنفيت السرقة عن فلان، لكن فعل السرقة ثابت. فأنتم آمنتم بأن شيئا نزل، لكن لم ينزل من عند الله. فمن عند من نزل إذن؟ ننظر: لقد اضطربوا مرة وقالوا: ﴿**إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ**﴾(٣). ورد عليهم الله تعالى بقوله: ﴿ **لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ** ﴾(٣). هذا الرجل الذى قلتم إنه يعلم محمدا القرآن أعجمى لا

---

(١) سورة الزخرف، من الآية: ٣١.

(٢) سورة البقرة، من الآية: ٢٣.

(٣) سورة النحل، من الآية: ١٠٣.

ينطق لفظا عربيا واحدا، والقرآن عربى فصيح. سقطت الحجة إذن. إن كنت كذوبا فكن ذكورا.

إذن فيه شئ نزل، ولكنكم تنكرون أن اللّه هو الذى أنزل، وما دمتم تقولون: إن الله لم ينزل، وأن واحدا من الناس هو الذى قاله، فهاتوا واحدا مثله يقول مثل ما أنزل عليه.

الإصرار على التحدى دليل صدق القرآن:

الشئ إذا حدث من بشرية ذاتية، يعنى أنت قدرت على شئ بذاتيتك دون معونة أحد لا تستطيع أن تتحدى به غيرك؛ لجواز أن يكون الذى تتحداه قد وجد له مثل موهبتك ما دام من ذاتك، وليس من خارج عنك، يجوز أن يكون من تتحداه مثلك ما دام من ذاتك فكيف تكون لك قوة على التحدى والتحريض؟ من يتحدى ويحرض لابد أن يكون مؤمنا بأنه لا قوة تساويه حتى تأتى بمثل هذا الكلام. لماذا تأتى ذاتيتك بهذا، ولا تأتى به ذاتية غيرك؟ بل يمكن للآخرين أن يأتوا بمثل ما تقول أنت.

إذن فما دام رسول الله ﷺ مصرا على التحدى، والتحدى تحريض على المعارضة، ولا يحرض على المعارضة إلا إذا وثق أن من يتحداه لن يستطيع بذاتيته أن يأتى بمثل هذا؛ لأنه بذاتيته لم يأت به.

لقد تحداهم وحرضهم وتوعدهم، وفى هذا كله شحذ لهمة المعارض على المعارضة، إن الذى يحقق رقما فى حمل الأثقال ويتحدى، ثم يأتى آخر ويكسر رقمه، لماذا كسره؟ لأن له ذاتية، فكما تفوق هذا ربما تفوق غيره، وهذا معناه أن الشئ الذى يكون بذاتيتك بدون مدد من الغير لا يصح أن تتحدى به مساويك، لجواز أن يكون متفوقا عنك.

وإصرار محمد ﷺ على التحدى وتوعده وتحريضه الإنس والجن معناه: وثوقه من أن القرآن ليس من ذاتيته، لو لم يكن واثقا من أنه ليس من ذاتيته لما أمن

معه أن يوجد واحد مثله أو أقوى منه، وخاصة أنه لم يتحد فردا، بل تحدى جماعة وإنسا وجنا .

قال لهم القرآن: المسألة بسيطة، ما دمتم تقولون: إن القرآن من عنده، وأنتم بحكم وضعكم معه ووضعه معكم أقوى منه فى تناول الكلمات، فلم يؤثر عنه أنه خطب أو قال شعرا، هو عادى جدا، وكونه عاديًا هكذا أعده الله لمسألة يجب أن نفطن إلى أن أميته عين القوة له، معنى كونه أنه كما ولدته أمه، لم يتأثر بثقافة أحد، حتى لو جاء بشئ لا يقال إنه من الثقافات التى عرفها، فلو كان هذا الشئ مبهرا فليس هو من عنده. فالأمية قوة له، مع أنها بالنسبة لنا نقص، ولكنها بالنسبة له كمال.

الأمية بالنسبة لنا عدم العلم، وهو يقول: أنا لم آخذ من بشر شيئا، كل الذى عندى علوى سماوى، وهذا دليل على أن الأمية مصدر قوة للرسول؛ لقد قال لهم: هاتوا سورة من مثله.

مرة يقول: (أنزلنا) ومرة يقول: (نزلنا). (أنزلنا) عقدية بالهمزة، فكأنه خرج القرآن من كنزيته من اللوح المحفوظ ليباشر مهمته فى الدنيا. وكونه ينزل أقساطا ونجوما يقول فيه (نزلنا). حين قال الله هذا أكان القرآن قد نزل كله؟ إن كان كله قد نزل قال: (أنزلنا) وإن كان ما زال ينزل نجوما يقول: (نزلنا).

(على عبدنا) كلمة « عبد » تدل على أنه لا دخل له فيما يقول، إلا فيما وكل إليه الحق أن يقوله، وإلا فيما خوله الحق من التشريع ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾(١). إذن فحيثيته أن تسمع منه ما يقول فقط راجعة إلى أنه رسول مفوض أن يقول فى الكتاب. وحيثيته أن يقول شيئا لم يرد فى الكتاب راجعة إلى قوله: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾(١).

الدستور الوصفى يأتى بالقضايا العامة. نقول: هات من الدستور: من غاب

---

(١) سورة الحشر ، من الآية: ٧.

عن عمله خمسة عشر يوما يفصل. لا توجد. لكن إذا علمنا أن هناك مادة تقول: تنشأ لجان لوضع قانون الموظفين. وهذا تخويل للمجلس أن يضع القواعد. إذن فصل الموظف للغياب من الدستور بالواسطة، والرسول مخول من الشارع أن يقول، فكأن الله هو القائل.

التدرج فى التحدى:

ولقد تدرج اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ فى التحدى مع الكافرين المكابرين، فطلب منهم أن يأتوا بمثل القرآن، ثم تدرج معهم فطلب منهم أن يأتوا بعشر سور، ثم تدرج فطلب أن يأتوا بسورة.

والنزول فى المتحدى به من القرآن إلى العشر إلىٰ السورة دليل من المتحدى على أنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بأقصر سورة، لقد سايرهم وقال: إن كنتم لا تستطيعون أن تأتوا بمثل القرآن فأنا سأتساهل معكم وأطلب منكم عشر سور، فلما لم يفعلوا طلب منهم سورة. والسورة طائفة من القرآن، سميت سورة لأنها مسورة محددة، أو لأنها منزلة، أو مخفف (سؤر) أى بقية. وما دام مدلول كلمة (سورة) مفهوما لنا فهو يصدق على سورة البقرة وسورة إنا أعطيناك الكوثر، فإذا كان الله قد تحداهم أن يأتوا بسورة فنحن لا نطلب منهم سورة البقرة، بل نطلب منكم ما يطلق عليه اسم سورة، وما يطلق عليه سورة، فهاتوا أقصر سورة.

﴿**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ**﴾(١) وفى آية أخرى ﴿ **بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ**﴾(٢) هذا ترق وتدرج فى التحدى معهم أيضا. يقال فلان مثل فلان، وفلان آخر مثل فلان، لأن المثلية مختلفة. هذا مثله قليلا، وهذا مثله تماما، وهذا مثله بتوسط، والله لا يقول: ائتوا بسورة مثله تماما، بل من بداية ما يقال له مثل. وهذا تَرَقٍّ فى التحدى أيضا.

وعلى هذا نفهم أن « من » فى الآية أصلية وليست زائدة، إياك أن تقول فى القرآن « من » زائدة، وأن المراد بسورة مثله ساعة تقول: ما جاءنى رجل .. الرجل

---

(١) سورة البقرة ، الآية: ٢٣.

(٢) سورة يونس، من الآية: ٣٨.

مفهومه : مايقابل المرأة . لكن الرجولة مختلفة. فإذا قلت : ما جاءنى من رجل، فالمعنى.. من بداية ما يقال له رجل، لا من قمة ما يقال له رجل .. وإذا قلت: ما عندى مال، فقد نفيت أن عندك مالا، ولعلك نفيت أن عندك مالا له قيمة، يعنى ليس عندك ألف أو مليون، لكن إذا قلت: ما عندى من مال فقد نفيت بداية ما يقال له مال، يعنى لاشيء.

إذن لا شئ فى القرآن يقال له زائد. « من » هنا جاءت لتفهم البداية، فساعة أقول: ائتوا بسورة من مثله، لا أريد مثله طبق الأصل، ولكن أريد بداية ما يقال له مثل. هذا ترق فى التحدى.

وتحد آخر على طريق التدرج فى قوله تعالى: ﴿ **وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾[1]. ما دمتم ستأتون بشئ مثل القرآن فلابد من قوم يحكمون بأن ما أتيتم به مثل القرآن أولا، فالله فوضهم فى أن يأتوا بالشهداء، ولا يفوضهم بالمعينين لمعارضة القرآن أو بالشهود إلا إذا كانت هناك ثقة لاحد لها فى أن مطلق العقل الفطرى المرتاض على البيان إذا سمع أى شئ فسيقول على الفور: إنه ليس كالقرآن، حتى هم أنفسهم يقولون ذلك، وحتى من أتوا بهم ليعارضوا القرآن وحتى الشهود الذين يحكمون، كلهم سيقول: إنه ليس كالقرآن.

لكن إياكم أن تقولوا: الله يشهد أنه مثل القرآن؛ لأن شهادة اللّه غيبية، ونحن لانقبلها لأنكم أنتم الذين ادعيتموها، أما لو قال الله: شهدت، فعلى العين والرأس.

﴿ **إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[1] فى الارتياب إن اتصفتم بالصدق ـ والصدق ضد الكذب ـ فما هى النسب التى يأتى فيها الصدق، والنسب التى يأتى فيها الكذب؟.

كل منكم يتكلم بكلام مفيد، وهناك كلام غير مفيد. فإذا قلت: محمد. فإن السامع يسأل: ما شأنه؟ هذا السؤال معناه أن كلام المتكلم غير مفيد. أما إذا سألك

---

(١) سورة البقرة ، الآية: ٢٣.

أحد: من عندك؟ فقلت: محمد. فهذا كلام مفيد؛ لأنك ضممت إلى « محمد » كلمة « عندى » الواردة فى كلام السائل. أى : عندى محمد، وهذا كلام مفيد.

إذن فالكلام المفيد الذى يحسن السكوت عليه يقال له: نسبة كلامية، وقبل أن تتكلم بها دارت فى ذهنك، لم تقلها بلسانك قبل أن تمر على ذهنك، لأن الذى يقول كلاما لا يمر على الذهن هو المجنون. فقبل أن توجد نسبة كلامية لابد من نسبة ذهنية. ثم هناك النسبة الخارجية، إذا قلنا: محمد مجتهد. قبل أن أقولها لك استحضرت المحكوم به وهو الاجتهاد والمحكوم عليه وهو محمد، واستحضرت القضية، وقلت: محمد مجتهد، ننظر فى الخارج: هل صحيح هناك واحد اسمه محمد ومجتهد؟ إن طابقت النسبة الكلامية النسبة الخارجية فالكلام صدق، وإن خالفتها فهو كذب.

فالصدق: أن تتطابق النسبة الكلامية الناشئة عن النسبة الذهنية مع النسبة الخارجية. والكذب: ألا تتطابق النسبة الكلامية مع النسبة الخارجية، والكذب عادة لأنه غير واقع ـ يتضارب. فمن الجائز أن يقص عليك إنسان قصة فيها كذب، ثم يعود ليقصها عليك بعد زمان فيتناقض فيها. لماذا؟ لأنه لا يوجد له واقع خارجى يحكم كلامه، ولوكان له واقع خارجى لما اختلف كلامه؛ لأن الخارج يقول وهو يحكى، لكن لأنه ليس له واقع خارجى لم يتذكر كيف كذب، فتفهم أنه يكذب، فالكذب كلام لا يوافق خارجا، ولا رابط له من الواقع يربطه. إذن فلا بد من الاضطراب فى الكذب؛ ولذلك قالوا: إن كنت كذوبا فكن ذكورا.

إياك أن تكرر فى النسب ما يتعارض؛ لأن الواقع يقع على لون واحد، فإذا جئت بلون آخر يعارض الأول فقد علمنا أنك تكذب فى الأولى أو فى الثانية أو فيهما معا. ونتذكر قصة الجماعة الذين خرجوا ليروا هلال رمضان فلم يروه، ولكن أحدهم حدق فى الأفق فرآه وأرشدهم إلى موقعه فرأوه، فسروا به سرورا عظيما، وأثنوا عليه ثناء جزيلا، فاغتر بنفسه وبإطرائهم عليه فقال لهم (وأدى كمان واحد). نسب مختلفة. أصبح كذبا.

وإن كنتم أيها الكفار صادقين، وكلامكم مطابقا للواقع فهاتوا سورة مثل القرآن. لم تستطيعوا ولن تستطيعوا. إذن لزمتكم الحجة.

الكافر كذب القرآن مختارا

الكفار مختارون ومقهورون :

بعد ذلك حكم اللّه بأنهم سيعجزون عن الإتيان بسورة من القرآن أو من مثل القرآن، فقال تعالى: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا**﴾[1].

﴿فإن لم تفعلوا﴾ إن الشرطية تفيد الشك تأتى للأمر المشكوك فيه، فإن كان الأمر محققا أتينا بإذا فقوله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾[2]. يفيد تحقق النصر والفتح. لكن قولنا: إن ذاكرت نجحت. معناه: إن ذاكرت يمكن أن تنجح وألا تنجح (إن) حرف، و(إذا) اسم « ظرف ». وكل فعل يريد حدثا وزمنا، فإذا أتيت بأداة شرط زمنية « ظرف » مثل (إذا) فقد قربتها من عنصر تكوين الفعل وهو الزمان، فتكون متحققة.

فحين قال تعالى: ﴿**فإن لم تفعلوا**﴾ وفيها شك أن يفعلوا أراد أن يرجح الجانب المانع من القدرة على معارضة القرآن فقال: ﴿**ولن تفعلوا**﴾. فما دلالة إتيانه تعالى بأداة الشك التى تجوز القدرة على معارضة القرآن ثم نفيها بلن النافية للمستقبل؟

لأن معارضتهم وكفرهم اختيارى، إذا تكلمت أمام مختار فى أن يفعل أو لايفعل، ثم حكمت بأنه لا يفعل، فليس فى هذا الحكم سيطرة عليه تلزمه بألا يفعل، وفرق بين أن تقهره على ألا يفعل وبين أن تعلم أنه لا يفعل.

وهذا من ضمن إخبارات القرآن الغيبية فى أنه تعالى أخبر عنهم ـ مع أنهم جاحدون، ومع أنهم منكرون ـ فقال: إنى أتحداهم، وترقيت معهم فى التحدى من الأعلى إلى الأدنى إلى الأدنى إلى الأدنى، ومع ذلك فلن يفعلوا، وثوقا من أنهم

---

(١) سورة البقرة، من الآية : ٢٤.

(٢) سورة النصر ، الآية : ١.

لن يجرأوا على أن يفكروا فى هذه العملية، وهذا دليل منهم على أن الريب الذى ادعوه ريب مفتعل.

هم لا يريدون الإيمان، وأنا أريد منكم الإيمان ، وأن تؤمنوا بصدق الرسول فى التبليغ عنى. ولكم الخيار فى أن تؤمنوا أو لا تؤمنوا، وقد استطعتم أن تنفذوا ما أردتم فلم تؤمنوا، فإن بقيت لكم هذه الذاتية ﴿**فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾(١).

لقد اخترتم فى الدنيا أن تسيروا تبعا لهواكم، وما تعارض مع أهوائكم عارضتموه ورفضتموه، فهل تبقى لكم هذه الذاتية فى الآخرة أم لا؟ إن بقيت لكم فاتقوا النار، هذا وعيد معناه: أنا الذى وهب لكم ذاتية الاختيار فى الدنيا، وأنتم لم تختاروا قهرا عنى، ولو لم أخلقكم مختارين فى أن تفعلوا أو لا تفعلوا ما استطعتم أن تخرجوا عن مرادى؛ ولذلك لن تخرجوا عن مرادى ساعة أمنع عنكم عنصر الاختيار: الاختيار فى الآخرة.

هناك فى الآخرة تقع عليكم المسائل، ولا يقع منكم شئ أبدا، فاللّه تعالى ملك أمور بعضنا لبعض فى الدنيا، وملك المسببات للأسباب، وجعل لبعض الناس ولاية، وهذا كله من مرادات اللّه فى الخلق الأول الدنيوى، أما فى الآخرة فلا ذاتية لأحد، ولا سبب ولا مسبب (بفتح الباء) ولذلك يقول اللّه : ﴿**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾(٢).

لقد انتهى كل شئ ولم يبق إلا الله، وإرادة الله. كانت لكم ذاتية فى الدنيا حين جعلت لكم ذاتية فى أن تسخر لكم الأشياء، كانت لكم ذاتية فى أن تختاروا، وأنا واهب هذه الذاتية، لكن حين أسلبها فى الآخرة، ويكون الأمر كله لى، فلا ذاتية لكم.

إذن فاجعلوا الذاتية التى منعتكم من الإيمان تمنعكم من عذاب النار .

---

(١) سورة البقرة، من الآية ٢٤.

(٢) سورة غافر، من الآية: ١٦.

لا يجيركم من الله شئ:

ولن تكونوا وحدكم فى النار، بل سيكون معكم من كنتم تعبدونهم فى الدنيا، ﴿**وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ وهذه الحجارة هي أصنامكم التى عبدتموها، وهذا منتهى الذلة ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ** ﴾(١) لأن العابد يرتجى نفع المعبود، فإذا ما جاءت لحظة ورأى العابد أن المعبود منفعل لقوة أكبر، ومشترك مع عابده فى العذاب فهذه هى الحسرة الكبرى، لو لم تكن تلك الحجارة معهم فربما قالوا: ستعلم الحجارة ثم تأتى لإنقاذنا، لكنها معهم فى العذاب.

فالله ينبههم ويقول: لا تغتروا بذاتية لكم خلقتها فيكم لتختاروا أن تؤمنوا أو لا تؤمنوا، ولكن اعملوا لشئ آخر، هو يوم تنعدم فيه هذه الذاتية، فلا قدرة لكم على شئ؛ ولذلك كنتم فى الدنيا تعيشون فى الأسباب، تزرعون وتروون وتحصدون، أما فى الآخرة فأنتم تعيشون بالمسبب (بكسر الباء).

فمن احترم أمر الله فيما له فيه اختيار فى الدنيا أعطاه الله هذا التصرف فى الآخرة، إن منعت نفسى من بعض الشهوات فى الدنيا فإنما ذلك لأحقق لها أعلى من الشهوات، أما الصنف الآخر فقد أعطى لنفسه بعض الشهوات فى الدنيا ليمنع عنها كل الشهوات فى الآخرة.

إذن فقول الله تعالى: (**فإن لم تفعلوا**) ينصب على النفى فى الماضى، لكنه لا يمنع الحصول فى المستقبل، ولهذا قال: (**ولن تفعلوا**) وما دام الأمر كذلك، ونفذتم مرادكم باختياركم الذى خلقته فيكم، وليس رغما عنى، فمن كفر فلم يكفر قهرا عن الله، ولكن كفر لأن الله أعطاه الخيار فى أن يكفر أو يؤمن ﴿**فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾(٢) لأنه سبحانه لو قهر على الإيمان لما كفر واحد أبدا، لكن حينما ترك الخيار نقول له: الخيار لم يبق لك؛ لأن الخيار صحوة الذاتية، وسيأتى يوم تمتنع فيه هذه الذاتية، فإن كنت مغترا بالذاتية والخيار فاعمل حساب يوم لا ذاتية فيه ولا اختيار.

---

(١) سورة الأنبياء، من الآية: ٩٨.
(٢) سورة الكهف، من الآية: ٢٩. .

إعداد الثواب والعقاب:

﴿أعدت للكافرين﴾. معنى هذا: أن النار جاهزة من الآن. ولماذا أعدت النار وأعدت الجنة الآن قبل يوم الحساب؟ أعدت لتطمين المؤمنين غاية الاطمئنان، وترهيب الكافرين غاية الترهيب، كما تقول لولدك: إن نجحت سأهدى لك دراجة. هذا لا يطمئن الولد تماما، فربما تغيرت ظروف أبيه فلم يستطع إهداءها له. أما أن يشتريها الوالد، ويقول لابنه: إن نجحت فسأهديها لك. ففى هذا تشجيع له على العمل وتطمين له عليها.

فقوله تعالى: ﴿**أعدت**﴾ معناه أنها موجودة من الآن. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**عرضت على الجنة، ولو شئت أن آتيكم منها بقطاف لفعلت**». وهذا دليل آخر على أن الجنة والنار موجودتان بالفعل.

●●●

بشريات المؤمن

ورثة الفردوس:

قال الله تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الوارِثون ⑩ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾(١) الإرث: شئ آل إليك وكان لغيرك، فهل كانت الجنة مملوكة لأحد ثم ورثها المؤمنون؟

نقول: إن علم الله واسع، يعلم عدد الكفار وعدد المؤمنين منذ بدء الخليقة إلى أن تقوم الساعة، ولا يعجزه أن يعد لكل فريق مكانه من النعيم أو العذاب دفعة واحدة، ولكن الله تعالى لم يفعل ذلك، بل إنه كلما خلق نسمة أعد لها مكانين: مكانا فى الجنة ومكانا فى النار. فإذا دخل أهل الجنة الجنة بقيت أماكنهم خالية فى النار، ومن دخل النار بقيت أماكنهم من الجنة خالية، فأهل الجنة ورثوا أماكن أهل النار فى الجنة.

فمعنى (**أُعِدَّتْ**) أنها أعدت لكل الخلق على فرض أنهم كافرون، كما أن الجنة أعدت لكل الخلق على فرض أنهم كانوا مؤمنين، هذا هو معنى الإرث؛ ولذلك يجب أن نفهم قوله تعالى : ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** ﴾(٢). على أنهما جنتان: جنة حق بالإيمان، وجنة إرث للذين كفروا. هذا من بعض معانيها.

بشرى للمؤمنين:

وإذا كان الله تعالى قال: (**أُعِدَّتْ**) والقلم قد جف، فلابد أن يختم بتبشير المؤمنين، فقال: ﴿**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾(٣) وهذه كناية. حين يأتى الوعيد وبعده البشارة فالبشارة حينئذ خطب فادح على الكافرين؛ ولذلك يقول الله تعالى: ﴿**فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ**﴾(٤). ليخبرنا أنه لم يدخلنا، وهذه نعمة.

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٠ ـ ١١.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.
(٣) سورة البقرة، من الآية: ٢٢٣.
(٤) سورة آل عمران، من الآية: ١٨٥.

والبشارة تقابل الإنذار. والإنذار: إخبار بأمر مخوف. والبشارة: إخبار بأمر سار، وكلها في مطلق الإعلام، فإن كان إعلاما مطلقا فهو تعريف، وإن كان بما يسر فهو بشارة، وإن كان بما يخيف وهناك فترة لتلافى الأمر المخوف فهو إنذار، وإن لم تكن هناك فترة لتلافى الأمر المخوف فهو إشعار. فإذا قيل لك: إن لم تكف عن هذا العمل فسيقبض عليك رجال الشرطة فهذا إنذار؛ لأن هناك فترة يمكن فيها أن تكف عن العمل، أما إذا جاءك رجال الشرطة ومعهم أمر القبض عليك فهذا إشعار.

وأما قوله تعالى: ﴿**فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾[1]. فهو من البشارة التهكمية. مثل قوله تعالى: ﴿**وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا**﴾[2] حين يسمع الكافر وهو يعذب أنه سيغاث، تستشرف نفسه إلى ما يخفف عنه العذاب، ولكن الصدمة تصيبه حين يعلم أنه يغاث ﴿**بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ**﴾[2] وحين يعذب معتقل من المعتقلين بالعطش، ويستغيث طالبا كوبا من الماء فيأتونه وما أن يقترب من فمه حتى يرفع ويراق على الأرض.

من الذين يبشرهم الله؟ هم كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ**﴾[3]. وذلك لأن الإيمان هو الرصيد القلبي للسلوك، أنت تسلك السلوك الطيب لأنك مؤمن بقضية. كل عمل خلقي لابد أن له ينبوعا عقديا ينصره هل المقصود الينبوع العقدى؟ أو المقصود السلوك؟ بل المقصود السلوك؛ ولذلك يقول الله: آمنوا أو اكفروا، ولكن لابد من أن تنسجم حركة الحياة مع قانون الإسلام، ولذلك إن قامت جماعة مؤمنة وتحكمت وسيطرت وساد نظام الإسلام فقد انتهت المسألة، لكن لما كان نظام الحياة لا يقوم إلا على إيمان كان العمل الصالح ينبوعه هو الإيمان.

---

(١) سورة التوبة، من الآية: ٣٤.

(٢) سورة الكهف، من الآية: ٢٩.

(٣) سورة الإسراء، من الآية: ٩.

يوجد الإيمان أولا، ثم العمل الصالح، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾(١) ويقول: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾(٢) لأن اعتقادنا أنه لا إله إلا الله ونطقنا بأنه لا إله إلا الله لن يعطيه صفة كمال، لكن هذا لمصلحتى أنا؛ لأن الله لايريد أن تتعارض حركة الحياة، وما دامت حركة الحياة مستقيمة فالخير كل الخير فى هذا؛ ولذلك فالإسلام حين يفتح بلدا فليس خطه أن الكل يؤمنون، بل خطه أن تنسجم حركة الحياة مع مبادئ الإسلام، فإن كانت له قوة يسيطر بها على حركة الحياة لتسير مع الإسلام فإنه يترك الناس أحرارا يؤمنون أو لا يؤمنون.

أهم شئ أن تسير حركة الحياة على منهج الإسلام، وكل البلاد التى دخلها الإسلام فتحا ترك أهلها على دياناتهم، وحكم الحياة بمنهج الإسلام، إذن فالبشارة للمؤمنين الذين عملوا الصالحات. والصالحات: جمع صالحة. ومعنى الصالحة: الأمر المستقيم على الجادة المطلوبة. الصلاح ضد الفساد، إذن فحين يستقبل الإنسان الوجود فسيجد أشياء صالحة، وعمله الصالح ألا يتعرض لها بالإفساد. هذه أول مرحلة. والمرحلة الثانية: أن يزيدها صلاحا، ومن لا يستطيع أن يزيدها صلاحا فلا يعمد إلى الصالح فى ذاته فيفسده.

اللغة عاجزة عن وصف النعيم:

والحق سبحانه يبشر المؤمنين، فبماذا يبشرهم؟؟ كما توعد الكافرين بالنار التى وقودها الناس والحجارة فكذلك يبشر المؤمنين بالجنات التى تجرى من تحتها الأنهار.

جنات بالجمع؛ لأنها منازل كثيرة، فيها: الفردوس، وعدن، وجنة الخلد، وجنة النعيم، وغيرها.

أما الثمرات فليس فيها سوى رؤية الحق؛ لأنك فى الحقيقة لا تأكل عن جوع

---

(١) سورة العصر، الآيات: ١ ـ ٣.

(٢) سورة فصلت، من الآية: ٣٣.

حتى تعتبر الطعام أساسا، فقال الله: قد بشرتك بجنات. وإن الله حينما يعدنا بأمر غيبى فلا مندوحة من أن يستعمل ألفاظ المشهد الموجودة، وما دام الله قال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(1) فالنفس لا تعلم شيئا عما أخفى لها من النعيم، وما دامت لا تعرف، أيوجد لفظ فى اللغة نعبر به عن الحقيقة؟ لا يوجد لفظ، ما دمت لا تعرف فلا يوجد لفظ يؤدى ما لا تعرف. اللغة إنما توضع لمعان معروفة؛ ولذلك الرسول ﷺ يقول: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**».

(ما لا عين رأت) أفرادها قليل، (ولا أذن سمعت) أوسع أفرادا. (ولا خطر على قلب بشر) أكثر اتساعا؛ لأن الخواطر على القلوب أوسع الدوائر. وما دام لا رأى ولاسمع ولا خطر على قلبه فبأى لفظ من الألفاظ يعبر عنه؟ الألفاظ التى نتكلم بها إما رأت معانيها العين أو سمعتها الأذن أو خطرت على القلب، إذن لا توجد ألفاظ تعبر عن نعيم الآخرة.

لا تطلب من اللغة أن تأتى بألفاظ لا وجود لمعانيها عندنا؛ لأن الأصل أن توجد المعانى أولا، ثم توضع لها الألفاظ، والمعانى غير معروفة إذن فحين يقول الله: سأعطيكم خبرا عن الجنة فهو لا يعرفنا حقيقتها، ولكن يمثل لنا الجنة فقط: ﴿**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ**﴾(2).

وكلمة «جنة» من مادة الجنون، والجنة (بضم الجيم) والمجن. وكلها تدل على الستر. فالمجنون ستر عقله، والجنة (بضم الجيم) تحفظ، والمجن يحفظ المحارب. والجنة تستر السائر فيها، أو أنها تستر من فيها عن بقية الوجود؛ لأن فيها ما يغنى عن بقية الوجود. مثل كلمة «قصر» قصرك بالاستغناء عما سواه بما فيه. ومنه ﴿**حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ**﴾(3).

والجنة تدل على تشابك أغصانها فتسترك. والملحظية الأولى فى الجنة التكاثر

---

(1) سورة السجدة، من الآية: 17.
(2) سورة محمد، من الآية: 15.
(3) سورة الرحمن، من الآية: 72.

الخضرى، والتكاثر الخضرى ابن الماء. فطمأننا على أنها ﴿**تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾(1). لم يقل: تجرى تحتها الأنهار؛ لأن معناه أن الأنهار آتية لها من بعيد، ويجوز أن ينقطع ماؤها بعائق من العوائق، ولكنها تجرى من تحتها، أى ابتداء من تحتها، فالماء فيها ذاتى.

أما الثمرات فقد جاءنا بمثل، وذكر أنها متشابهة مع ثمار الدنيا؛ ليكون لك إقبال عليها، وأنس بها؛ لأن إلف الإنسان للشئ يشجعه على الإقبال عليه، أشبهت ثمرات الدنيا حتى يكون لك إقبال عليها، وأنس بها، فإذا ذقتها لم تجدها مثلها ﴿**رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ**﴾(2).

ونخل الجنة طلعه نضيد، نحن هنا نقطع كل سنة جريدا من النخل مكان عثاكيل النخل ، وفى العام الذى بعده يطلع الطلع فى مكان آخر صفا واحدا. أما فى الجنة فعلى قدر صفوف الجريد يكون الطلع، وكل الأدوار تثمر.

والنهر لا يجرى إلا فى حيز مشقوق؛ لأن الماء أساسه الاستطراق، فلابد له من مجرى، وأنهار الجنة تجرى بدون مجرى.

فالله حين فَوَّتَنَا بعض شهوات نفوسنا فقد ضمن لنا فوق هذه الشهوات فى الآخرة، وهى شهوات خارجة عن نظام الأسباب، وداخلة فى نظام المسبب (كن فيكون).

والحق حين يعرض هذا اللون من الجزاء يريد أن يطمئننا على سلامة ما جربنا من الالتذاذ، فالأزواج مثلا هى المتعة المنغصة، فى الدنيا هناك تنغيص يشترك فيه الرجل والمرأة، مثل القاذورات والفضلات فى كل منهما، وقد تكون سليطة اللسان شكسة الطباع، ولكن الله تعالى قال ﴿ **أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ** ﴾(2).

ولذلك هناك من يغتم حين يعلم أن زوجته ستكون معه فى الجنة؛ لأنه لا يطيقها فى الدنيا. نقول له: إنها ستتغير تغيرا جذريا، سيطهرها الله من كل ما

---

(1) سورة البقرة، من الآية : ٢٥.

(2) سورة البقرة، من الآية: ٢٥.

يضايق النفس. وهناك أشياء خاصة بالمرأة كالحيض والنفاس والاستحاضة ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾(١). لا وجود لهذه المقاييس الدنيوية، فهى مطهرة يعنى طهرها الله، ومن طهره ربه لا ينجس أبدا.

بشريات المؤمنين حقيقة منظورة:

وحين يقول الحق: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) فهو القادر على أن ينفذ ما بشر به، فلم يبشر بشئ تعجزه القدرة أن يكون، أو يطرأ عليه عدم وجود الإمكانيات حين يكون، وذلك هو الفارق بين بشارة الحق وبشارة الخلق؛ إن بشروا فقد يبشرك من أحبك بشئ يسرك، ولكنه ساعة يقع فى موقف التنفيذ لا تمكنه قدرته ولا تمكنه إمكانياته أن ينفذ ما بشر به.

فحين نستقبل قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢) من الله فذلك شئ مؤكد أن يقع، لأن الذى بشر به لا تخرج عن قدرته حركة من حركات الإمكان، والمبلغ للبشارة صادق؛ لأنه مؤيد بالمعجزة، ونتيجة لذلك فالمبشر به أمر يجب أن نطمئن إليه اطمئنان الواثق بحدوثه.

ألا ترون إلى حارثة لما قال له رسول الله ﷺ : «**كيف أصبحت**» ؟ قال: أصبحت بالله مؤمنا حقا. فقال ﷺ : «**إن لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك** »؟ قال: عزفت نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى ذهبها ومدرها (**يعنى حصاها**) وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا، وإلى أهل النار يعذبون. قال: «**عرفت فالزم**» يريد ﷺ أن يعلمنا الجواب من حارثة ،حتى لانطلق الكلام على عواهنه ، بغير رصيد من إيمان يعطينا حقيقة اليقين. فحين سأله ﷺ عن حقيقة إيمانه فإنما سأله عن حيثيات إيمانه .. وجواب حارثة يدل على أنه بمجرد إخبار الرسول ﷺ عن هذه الأشياء تبليغا عن الله فكأنها حقيقة واقعة لامرية فيها ، فيجد إخبار الله بها صدقا كأنه يراها رأى عين، وذلك هو مناط الإيمان بالإخبار عن الله

---

(١) سورة الأعراف، من الآية: ٤٣.

(٢) سورة البقرة، من الآية: ٢٢٣.

. ألم تروا إلى قوله تعالى لرسوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾[1] أرسول الله ﷺ رأى مافعل الله بأصحاب الفيل حتى يقول له: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾[1] ؟ يقول المفسرون : معناها: ألم تعلم. عبر الله (بألم تر) بدل (ألم تعلم) لأنه يريد أن يعلمنا أنه حين يعلمنا بشئ فكأننا نراه رأى العين.

تلك هى البشارة، والبشارة بالجنة، والجنة ضمان للمسكن الطيب المريح، وللرزق الذى هو الثمرات، ولمتعة المتع بالنسبة للناس فى الحياة وهى الأزواج المطهرة من المنغصات، هناك إذن لون من الاطمئنان يعطينا المسكن الطيب، والرزق الطيب، والمتاع الطيب.

لن تفوتك النعمة ولن تفوتها:

والنعمة فى الدنيا تختلف باختلاف إمكانيات المنعم، فالذى ينعم عليك فى قرية، ويعيشك عيشة مترفة فيها، غير الذى ينعم عليك فى المدينة، غير الذى ينعم عليك فى العاصمة .

والعداوة لا تحتدم إلا إذا كانت بين اثنين أعداء، وأيضا تختلف درجات الإنعام باختلاف قدرة المنعم ومقداره.

فكلما عظم قدره وزادت قدرته كان الإنعام أوسع، فإذا كنا سنرى النعمة من يد قادر، ونراها باشتهاء المنعم عليه وحده، فهو الذى يتحكم فيها ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾[2] فبمجرد الخاطر يأتيك. فهب أن الدنيا قد ارتقت حتى وصلنا إلى أننا نجلس فى مكان ونضغط على زر كهربى فتأتينا قهوة وزر آخر فيأتينا طعام، وآخر فتأتينا فاكهة، ونحن جالسون فى أماكننا، فهل يوجد فى أعراف إمكانيات البشر أن يطرأ على ذهنك الشئ الذى تشتهيه فيأتيك بمجرد طروئه على فكرك؟ ذلك ما تقف عنده إمكانيات البشر وتعجز عنه عجزا كاملا.

وبعد ذلك تأتى منغصات النعمة. ومنغصات النعمة تأتى من شيئين: من أن

(١) سورة الفيل، من الآية: ١.

(٢) سورة ق، من الآية: ٣٥.

تفوتك النعمة، أو تفـوت أنت النعمة. وكل نعمة فى الحيـاة إما فائتة منك، أو أنت فائت لها. تلك هى منـغصات النعمة، فبـعد أن يطمئننا الحق على النعمـة وبقائها، وأنها عطاء غير محدود، يقول لك: لن تفارق النعمة ولن تفارقك النعمة، فمصدر الخوف من الجهتين نعم متتالية لا تنقطع. إذن فقد أمنت أن تفوتك النعمة، وبقى أن تأمن أنت أن تفوت النعمة، فيطمـئنك الحق سبحانه بقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1] إذن فقد طمأننا إلى بقاء النعمة، وإلى بقائنا نحن فى النعمة.

تجـارة رابحـة:

فقـول الحق ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1] تطمين لنا على خلـود النعمـة وخلودنا مـعهـا، وإذا كنا خالدين فى النـعيم فلمـاذا لا نقارن زمن التـكليف بزمن النعمـة، والتكليف زمنه محدود بعمر الإنسان فى الأرض؛ ليأخذ نعيما غير محدود فى لقاء ربه فى الجنة، فكل عمله فى الدنيا يسير بالمقارنة بالنعيم المقيم.

فإذا كان الله يكلفنى حين أبلغ سن الرشد، وبعد ذلك أظل مكلفا طيلة عمرى ـ فى متوسط الأعـمار ـ خمسا وسـتين سنة؛ لأنال نعيما أبديا لا نهـاية لزمانه، ماذا يكون الموقف إذن؟ إنه تجارة رابحة، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[2] الآية.

والتجارة معناها: أن يشترى التاجر شـيئا بثمن بسيط لينال ربحا أوفى، وهو ما أهاب الله تعالى بعباده أن يتاجروا معه فيه زمن حياتهم.

ذاك أسلوب رتيب، وهذا أسلوب سريع.

يريد الله أن يثبـت عداوة بين موسى وفـرعون، والعداوة إذا كـانت من جانب واحد لا تطول، ولكن العداوة التى تطول هـى التى تكون من الجانبين؛ لأن العداوة حين تكون من جانـب واحد والجانب الآخـر يعامل بشئ من الأمان والحـلم تنتهى العداوة.

---

(١) سورة البقرة ، من الآية: ٢٥.

(٢) سورة الصف، الآيتان: ١٠ ـ ١١.

موضوعنا ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾(١). العداوة من جانب من ؟ أثبت العداوة من جانب فرعون لله ولموسى، ولهذا طالت العداوة.

وأول بلاغ من الله عن آدم: إعلام الملائكة به، ورد الملائكة، وتعليم آدم الأسماء، وعجز الملائكة عنها، وهذا ليس موجودا فى البقية.

فى موضع آخر يأتى بسبب عدم سجود إبليس، وليس موجودا فى غيره، وفى موضع آخر يأتى بقصة الإنظار ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(٢) وفى موضع آخر يأتى بالإغواء ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٣) وفى آخر يأتى بمنهجه فى الإغواء ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(٣) ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(٤) وفى موضع آخر يتحدث عن جنس إبليس ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾(٤).

تكررت قصة آدم فى مجموعها العام، إلا أنه لم يتكلم عن مادة الخلق فى سورة البقرة. بل قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾(٦) وفى غيرها قال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾(٧).

إذن فكل قصة فى كل سورة من سور القرآن لها لقطة لا توجد فى السور الأخرى فى نفس القصة، ولم يرد الله أن يجعلها قصة واحدة لأن الله تعالى لا يسرد تاريخا، وإنما يريد أن يثبت بها الفؤاد، وتثبيت الفؤاد لرسول جاء على فترة من الرسل، فى قوم ضالين عن منهج الله يحتاج كل مرة إلى أن يذكرهم كيف خلق الناس، ومم خلقوا، بدليل أنها علقت فى ذهن رسول الله ﷺ حتى قالها فى حجة الوداع ، وهى آخر مواعظه: « **كلكم لآدم ، وآدم من تراب** ».

---

(١) سورة طه ، من الآية: ٣٩.

(٢) سورة الأعراف، من الآية: ١٤.

(٣) سورة ص، الآيتان: ٨٢ ـ ٨٣

(٤) سورة الأعراف، من الآية: ١٦.

(٥) سورة الكهف، من الآية: ٥٠.

(٦) سورة ص، من الآية: ٧٢.

(٧) سورة الإسراء، من الآية: ٦١.

فيريد الله بتكرير القصة أن يسجل هذه المسألة، ويريد أن يذكرنا دائما بعداوة إبليس لنا؛ لأن المنهج كله هكذا: افعل، ولا تفعل، وشيطان يغوى، وناس يستقبلون إغواء الشيطان.

●●●

القصة فى القرآن

القصص الحق

بعد أن تكلم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى سورة البقرة عما خلق فى الكون أراد أن يتكلم عمن خلق ليعمر هذا الكون. فكأن القصة التى بدأ الله بها قصصه القرآنى كله فى أول سورة البقرة ـ وهى أول سورة ترتيبية فى القرآن ـ كانت هى قصة آدم أول الخلق.

فيجب أن نعلم أن كلمة (قصة) قد وردت فى القرآن كثيرا، وردت لتدلنا على سبب وجود القصص فى القرآن، وجاءت أيضا لتدلنا على صدق الله تعالى فى الإخبار بالقصة، فكأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أراد أن ينبهنا حين يقول: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ**﴾[1]. وقوله: ﴿ **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ** ﴾[2] على أن كلمة (الحق) فيها إيحاء بأنه قد يُقَصُّ قصص ولكنه بغير الحق.

فالله تعالى أراد أن يخرج قصصه عن دائرة القصص الذى قد يعهد فيما يأتى من الزمان، كأن يوضع ـ كما يوضع الآن ـ قصص خيالية بحتة لا مكان للواقع فيها، يريدون بها إبراز حقيقة فى الوجود، أو علاج داء فى الوجود، فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول عن قصصه إنه بالحق؛ حتى تعلم أن القصص الذى يقصه الله فى القرآن ليس من نوع القصص الذى سيحدث فى التاريخ قصصا خيالية لامكان للواقع فيها.

وكنت أحب من الذين يسمون هذا اللون قصة: أن يفطنوا جيدا إلى أن ما يضعون من القصص يجب أن يوضع له اسم غير هذا الاسم؛ لأن كلمة (قصة) فى ذاتها مأخوذة من « قص الأثر ». ومعنى قص الأثر: أن يسير المتتبع للأثر على الأثر نفسه، بحيث لا يتجاوز الأثر أبدا، ليصل إلى مراده من نهاية الأثر.

---

(١) سورة الكهف، من الآية ١٣.

(٢) سورة آل عمران، من الآية ٦٢.

فقصاصو الأثر حينما نأتى بهم ليكشفوا لنا جريمة وقعت، ويرون آثار أقدام يسيرون مع الأقدام ليعرفوا أين ذهب صاحب هذه الأقدام، أو يفحصون بصمة صاحب القدم حتى يستطيعوا أن يعرفوه، فمعنى قص الأثر: أن تتبع الأثر بدون تصرف. إذن كلمة «قصة» يجب ألا تقال أبدا فى أمر خيالى، ولا فى أمر متوهم، ولا فى أمر لا واقع له. ويجب أن تطلق على واقع لا يتعداه القاص بخيال أو بغيره أبدا.

ولكنهم يطلقون القصة ويريدون بها ما تعرفون من قصص الخيال، والقصة مادمنا قد عرفنا أن الله يقصها بالحق فمعنى هذا أنه لا تزيد فيها أبدا، وأنها شئ واقع، ثم يأتى بعد ذلك ليدلنا على سبب ورود القصة، ليلفتنا إلى أنه يجب علينا ألانخرج القصص عن مراده، بمعنى ألا نؤلف قصصا لقتل الوقت، أو نؤلف قصصا للهو؛ لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿**وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ**
[illegible]

بيب ئؤاد قارئها لمعنى من المعانى يجب
ان يعيشه، ويجب أن يتفانى فيه، ويجب ألا يحيد عنه، لم توضع لقتل الوقت، لم توضع للاتجار، لم توضع لزخرف نريد أن نزينه للناس، ولا لإباحية نريد أن نخطط لها لنلقنها للأطفال فى حياتهم، بل لنثبت به فؤادك على منطق ينفع حركة الحياة، لامنطق يضر حركة الحياة.

انظروا إذن إلى قصص القرآن، قصص الحق، من الفؤاد إبعاده عن الهزات التى تكتنف ينبوع سلوكه لتهز حركة حياته، حتى يسير فى حركة الحياة سيرا ثابتا لا التواء فيه ولا ذبذبة.

انظروا إذن إلى قصص القرآن، قصص الحق، من قصص الخلق، القصة يجب أن نعرف عنها شيئا، القصة لون من ألوان التاريخ. فما التاريخ أولا؟ التاريخ: ربط

---

(١) سورة هود، من الآية: ١٢٠.

الأحداث بالأزمنة، وإن كان تاريخا لشخص، يقول قائل: قد يكون التاريخ لحياة شخص من الأشخاص.

نقول له: الشخص نفسه حدث من أحداث الحياة أيضا، إذن فما دام التاريخ هو ربط الأحداث بأزمانها فهو كذلك سواء كان فعلا أو فاعل فعل، إذن فقد يكون التاريخ مرة لحدث، ثم تدور الأشخاص حول الحدث.

إذن فالفكرة فى الحدث فى ذاته، ثم نأتى بالأشخاص الذين يدورون حول الحدث، إذا أرخت للثورة الفرنسية فإنك تتعرض للأشخاص الذين كانوا حول هذا الحدث، إذن فالحدث يتطلب أشخاصا، وقد يكون التاريخ مقصودا به الشخص، وتدور الأحداث حوله، مرة نريد الحدث، وتأتى الأشخاص الذين يدورون فى فلك الحدث، ومرة نريد الشخص، وتأتى الأحداث التى تدور حول الشخص.

إذا أردت أن تؤرخ للإسلام مثلا فالإسلام حدث هز الكون كله، تؤرخ أولا للإسلام كحدث، ثم يأتى بعد ذلك تاريخ الأشخاص الذين داروا حول الحدث لتعرف تاريخهم. وقد تؤرخ لعمر ﷺ ، فتكون قد أرخت لشخص، ثم دارت الأحداث التى دارت حوله، فتأتى بالأحداث التى دارت حول شخصية عمر.

إذن فالتاريخ معناه: ربط الأحداث بأزمانها، والحدث قد يكون شخصا؛ لأنه حدث أيضا فى الكون، إن أرخت للحدث فافهم أن الأشخاص يدورون حول الحدث، وإن أرخت لشخص فافهم أن الأحداث ستدور حول الشخص. هذا هو التاريخ. كل شئ حدث فى الكون، وكل شخص فى الكون يمكن أن يكون له تاريخ.

وهل كل حدث يمكن أن تجعل منه تاريخا؟ نقول: لا، التاريخ لا يعنى إلا بالأحداث المهمة، حين تأتى القصة تأخذ الحدث المثير لأهم شئ فى الحدث، إذن التاريخ فيه أحداث مثيرة، وأحداث غير مثيرة، والقصة لابد أن تكون حدثا مثيرا من التاريخ، ودائما تكون فيها عقدة، ويوجد فيها الحل للعقدة، إذن القصة لون

خاص من التاريخ، لا تتعرض لمطلق التاريخ، بل تتعرض لحدث مثير، هذا الحدث المثير نشأت منه عقدة، ثم حلت هذه العقدة، هذا ما نراه فى الأفلام. يصنع لك عقدة، ويدخلك فى متاهات، ثم يحل لك العقدة.

هذه قصة. وبعد ذلك ننظر للحدث المثير ذى العقدة، هل لحكيم دخل فى توجيه القصة كالمخرج مثلا؟ نعم. إذن لابد أن نلحظ أن الذى تكون القصة قد دارت فى فلكه كلما كان كاتبا عظيما، أو شاعرا عظيما فإن القصة تكون عظيمة، فما بالك بالقصص حول رسل أرسلهم الله فى التاريخ بأضخم حدث مثير فى الكون؛ لأنه سيزلزل النظم الموجودة ويغير العقائد، ويصحح حركة الحياة، وهذا حدث ينتظم أبناء الوجود كلهم، فلا إثارة أعظم من هذا. ومن الذى وضع مبادئه؟ الله سبحانه وتعالى.

ثم تأتى بعد ذلك فلا تقول: قصة محمد بن عبد الله، ولكن تقول: سيرة محمد بن عبد الله. أخذت اسما خاصاً، إذن هناك تاريخ، وهناك قصة، وهناك سيرة، لانقول عنها قصة، لأنها ليست مثل قصص الأنبياء السابقين يجرى عليها النسخ والتغيير، لا، بل هى سيرة ثابتة سيظل التاريخ يأخذ منها الأسوة، فيجب أن يكون لها اسم خاص، هى سيرة محمد بن عبد الله. فإذا جاءت كلمة «سيرة» لا تنصرف أبدا إلا إلى تاريخ محمد بن عبد الله. أما القصص الحق فهو قصص الأنبياء فى القرآن.

سيد التاريخ السيرة، هى السيد الذى لا يوجد أعلى منه؛ لأنها جمعت كل قصص الأنبياء، وزادت قصة محمد ﷺ ، وهى القصة التى لن تأتى بعدها قصة ويأتى بعد السيرة سيد، ولكن له سيد، وهى القصة، هى سيدة تاريخ ما قبلها، وهى مسودة للسيرة.

كلمة (قصة) ما دامت آتية من التاريخ، والتاريخ يتطلب حدثا مثيرا وعقدة وحلا للعقدة، فهناك أشياء موجزة يقال لها «طرفة» وأشياء يقال لها «نادرة».

الطرفة تضحك، وهى بسيطة، وأشخاصها قليلون، ومَثَلُهَا: أن أشعب دخل

على المأمـون، فقـال له المأمون: يا أشـعب: أيهمـا أشهى ؟ اللوزينج أو الفـالوذج؟ فقال يا أمير المؤمنين: لا أقضى على غائب - يعنى هات الاثنين حتى أحكم بينهما - فقال المأمـون: هاتوا طبقا من هذا وطبقا من هذا. فـصار أشعب يأكل من هذا ومن هذا ولا يحكم أيهما أحـسن. فقال المأمون: اقض يا أشعب. قـال: يا أمير المؤمنين: كلما هممت أن أقضى لأحدهما أدلى الآخر بحـجته. هذه طرفة، قطعة بسيطة من التاريخ.

والنادرة يكون فيـها حكمة، تكون درسا للغـد. ومثلها: أن واشيـا وشى بهمام ابن عبد الله السلولى إلـى زياد بن أبيه، وزياد كان باطشا فاتكا، فـقال زياد: أجمع بينك وبينه؟ فسكت الرجل، فـأرسل زياد إلى همام فأتى به، وأدخل بيـتا بحيث لا يراه الواشى، وقـال له: بلغنى أنك هجوتنى. قـال: كلا، ما فـعلت، ولا أنت لذلك بأهل. فجذب السـتار وقال: إن هذا الرجل أخبرنى بذلك، فنظر إليه هـمام فوجده صديقا ممن يجلس معه، فتفرس فى وجهه وقال:

وأنت امـرؤ إمـا ائتـمـنتك خـاليـا ... فـخنت وإمـا قلـت قـولا بلا علْمِ

فَـأُبْتَ مـن الأمـر الذى كـان بـيننا ... بأمـر كـمـا بين الخـيـانة والإثم

فلـم يتقبل زياد من الواشى، وأنعم على من وشى به. هذه نادرة، أبطالها ثلاثة، وصغيرة، ولكنـها تلقى الضوء على قضية كلُّ الناس يعـانى منها، قضية اجتـماعية يجب أن يسـير عليـها الحكام حـين يشى واحد بواحـد أمامـهم، لابد أن يواجهـوا الواشى بوشايتـه إلا إذا نقل بحق. كل هذا داخل فى التاريخ. لم تأخذ مـسافة ولا حيزا ولا زمنا طويلا، ولكنها تعطى درساً بليغا.

وقد ننتقل من الطرفة والنادرة إلى الأقصوصة. والأقـصوصة فيها أبطال أكثر، ولها مـدى واسع. مثلا نحن نعرف أن واحـدا فى الجاهلية اسـمه «كليب» وكليب هذا كان يضرب به المثل فى الشجاعة، وكـان يحمى مواقع السحاب، لم يكن أحد أيامه يملك الأرض، فإذا نزل المطر ونبت النبات فلكل واحد الحق فى أن يرعى. أما كليب فمن عزتـه كان يقول: ما تمطر عليه السـحابة فهو ملكى لا يقـربه أحد، كان يجعله حمى لنفسه.

وحدث أنه اختلف مع جساس أخي زوجته جليلة على ناقة، فقتل جساس كليبا، وأخت جساس تحت كليب. هذه قصة مثيرة، وأحدثت ضجة عند العرب، وقامت من أجلها حرب تسمى «حرب البسوس» استمرت سنين طويلة جدا. فالأقصوصة فيها شئ من الإثارة، وهناك انتظار لما سيحدث: جليلة ما موقفها؟ أخوها القاتل، والقتيل زوجها، ماذا سيكون الموقف؟ مسألة صعبة.

يقول صاحب الأغانى: لما قتل كليب اجتمع نساء الحى للمأتم، فقلن لأخت كليب: رحلى جليلة عن مأتمنا فإن قيامها شماتة وعار عند العرب. فالتفتت أخت كليب إلى جليلة، فقالت: يا هذه، اخرجى من مأتمنا، فأنت أخت قاتلنا، وشقيقة واترنا. فخرجت جليلة تجر أعطافها من الخزى. فلما ذهبت قالت أخت كليب: رحلة المعتدى، وفراق الشامت. فضحكت جليلة وقالت: أو تفرح الحرة بهتك سترها، وترقب وترها؟ هتك سترها بفراق زوجها، وترقب وترها بالثأر من أخيها. هلا قالت: نفرة الحياء، وخوف الاعتداء؟!

فلما ذهبت إلى أبيها مرة، ورآها، قال: ما وراءك يا جليلة؟ قالت: ثكل العدد، وحزن الأبد، وفقد خليل، وقتل أخ عن قليل، وبين ذين غرس الأحقاد، وتفتت الأكباد. فقال: أو لا يكف ذلك كرم الصفح، وإغلاء الديات؟ قالت: أمنية مخدوع ورب الكعبة، أبالبدن تدع لك تغلب دم ربها؟! ثم أنشأت تقول قصيدتها المعروفة، ومنها:

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا	تعجلى باللوم حتى تسألى
فإذا أنت تبينت الذى	يوجب اللوم فلومى واعذلى
فعل جساس على وجدى به	قاصم ظهرى ومدن أجلى
هدم البيت الذى استحدثته	وانثنى فى هدم بيتى الأول
قتيلا قوض الدهر به	سقف بيتى جميعا من عل
فأنا قاتلة مقتولة	ولعل الله أن يرتاح لى

هذه أقصوصة، وفيها أبطال كثيرون، وفيها حدث مثير، ولكن القصة أطول.

والله تعالى أعطانا شيئا من القصة، وشيئا من الأقصوصة، فقال فى سورة الكهف: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝١٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾(١).

فكأن الأولى أقصوصة، ثم جاء بعدها بالقصة شرحا للأقصوصة.

وإذا نظرنا إلى القرآن وجدنا قصصه بالحق، وليس فيه خيال، والقصص القرآنى هو الذى حافظ على شرف الكلمة؛ لأنه قص الأثر، قال تعالى: ﴿نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾(٢). هذه الكلمة تعطينا السر فى تكرار القصص القرآنى. ما علة ورود القصص فى القرآن؟ علته تثبيت الفؤاد. ومعنى تثبيت الفؤاد: ألا تهزه الأحداث. وهل الأحداث التى مرت برسول الله ﷺ فى الدعوة كانت حدثا واحدا يحتاج إلى تثبيت واحد؟ لا، بل إن الأحداث كان متتالية، فينزل الله عند كل حدث ما يثبت به فؤاد الرسول ﷺ.

فما دام القصص قد جاء للتثبيت، والتثبيت يقتضى أن أحداثا يمكن أن تهزه، فكلما جاء حدث ذكره بما مضى لغيره من الرسل.

لكن القصة لا تأتى مكررة كما هى كل مرة بل هى تأتى مكررة فى جملتها للتثبيت، ولكن فى كل مرة تحتوى على لقطة جديدة موجودة فيما مضى من القصة أولا، وذلك كما نسمع من يحتفلون بالثورات فى أعيادها، يتكلمون كل سنة عن سر من أسرارها، هيكل الحدث العام مكرر، أما ما فيه من خبايا فهو الجديد.

مثلا أكبر قصة كررت فى القرآن قصة موسى؛ لأنه كان يعالج قوما صلفين

(١) سورة الكهف ، الآيات: ٩ ـ ١٣.

(٢) سورة هود، من الآية: ١٢٠.

جدا. وأنت تحس أن القرآن يكرر قصة موسى، ولكنه يكررها بلحن اللقطة التى يريدها. مثلا: ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾[1].

ثم يقول مرة أخرى: ﴿ **إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ** ﴾[2].

هذا ليس تكرارا. هذه لقطات من حدث، إذا اجتمعت مع بعضها فتكون كاملة. لو لاحظنا ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ** ﴾[2] الآية. لوجدنا أنه يدل على أن الله يعدها إعدادا للحدث قبل أن يقع الحدث. ولكن ساعة يأتى الحدث نفسه فالسرعة تتغير ﴿**اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ**﴾[2]. هذه أوامر سريعة تلقى للتنفيذ السريع. هذا كلام ساعة الحدث، وذا كلام قبل أن يقع الحدث.

ولهذا كان لذلك أسلوب رتيب، ولهذا أسلوب سريع ﴿ **إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ**﴾[2].لم يقل: أوحيت إليها كذا وكذا وكذا. بل قال: أوحيت إليها ما قلته من قبل. الوقت ضيق. وهذه التفاصيل التى بعد هذا لم تأت فى الأولى، وكل لقطة مناسبة لمقامها.

فكلما أراد الله تعالى أن يعد رسوله ﷺ لحدث يأتى بأسلوب الإعداد دلالة على أن الله تعالى لا يأخذنا على غرة، بل يمد لنا، ويمهد لنا. وإذا جاء الحدث بالفعل جاء بالأسلوب.

●●●

(١) سورة القصص، الآية: ٧.

(٢) سورة طه، الآيتان: ٣٨ ـ ٣٩.

قضية العقيدة والعبودية

الإسلام والمواجهة

إن الإسلام قد جاء ليواجه تيارين: التيار الأول هو تيار الإلحاد والجحود للإله، والتيار الثانى هو التيار الذى يؤمن بالإله على خلاف فى تصور ذلك الإله، فكان الإسلام أقرب إلى التيار الثانى منه إلى التيار الأول، والإسلام جاء لينظم حركة الحياة، فمتى استقام نظام حركة الحياة فلا يعنى الدين أن يؤمن الناس بالإله؛ لأن إيمانهم بالإله أمر يعود عليهم فيما بعد، فإذا شاء الله بعصبة من عصب الخير أن تؤمن بالله وبرسوله الذى جاء ليكمل منهج الحياة وحركتها، فإن ذلك كاف لأن تسود حركة منهج الأرض، وبعد ذلك حين يسود منهج الله فى حركة الحياة بالأرض، فذلك هو مراد التشريع، أما أن يؤمن الناس بمصدر هذا المنهج فأمر لا يعنى إلا وجود عصبة قوية تؤمن بذلك؛ لتدافع عنه حتى تسود حركة السماء فى منهج الأرض. الإسلام حينما جاء لحركة الحياة جاء ليكمل إسعاد الحياة؛ ولذلك يقول الحق: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾(١) ـ إذن فالإسلام كان حركة ضرورية للإكمال فى الأرض، ولذلك لا يعنى منهج الإسلام إلا أن تؤمن به قوة تحمى ذلك المنهج ليسيطر فى الأرض، وبعد ذلك من آمن من بقية الناس فبها، ومن لم يؤمن فلا حاجة بنا إليه، مادام منهج الله أصبح مطبقا. ولماذا كان ذلك؟ لأننا كما قلنا:اليهودية جاءت ولجأت إلى أن تنحاز إلى المادية البحتة حتى أصبح لهم تصور فى ذات الله، هذا التصور لا يناسب ذات الله؛ لأن ذات الله لو كانت على هذا التصور ـ كما أقول دائما ـ لما كانت تستحق أن تعبد؛ لأن الإله الذى يمكن للحواس أن تدركه إله مقدور عليه من الحواس؛ لأن معنى أنك أدركت شيئا بحاسة من حواسك أن حاسة من حواسك قدرت على هذا الشئ فأدركته، إذن فلو كان الله مدركا بالحواس لكان مقدورا عليه من

(١) سورة المائدة، من الآية: ٣.

الحواس، والقادر المطلق لا ينقلب مقدورا عليه أبدا، إذن فعظمته أنه لا يدرك، لو أن أى تصور يجعله مدركا لقلنا: إن ذلك التصور ينازع ألوهيته، لأنه يصير مقدورا عليه ممن أدركه، أنت إذا عرضت مسألة حسابية وأمكنك أن تحلها، أصبحت قادرا، والمسألة مقدور عليها، فإن كنت تستطيع أن تحل مسألة تصورك لله سيصبح الله مقدورا عليه، ولذلك قال لك: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(١) إياك أن تتصوره كشئ من الأشياء، والتصور للأشياء لا يأتى إلا من الواقع، وما دام ليس كمثله شئ فإنه لايوجد واقع يمثله أبدا، إذن فعظمته أنه لا يدرك. كيف هذا؟ نقول: إن الإنسان منا بإجماع الناس مكون من مادة توجد فيها روح، فتنشئ فيها حياة، إذن فالروح التى توجد فى المادة هى التى توجد فيه الحياة والحس والحركة والإرادة، والوعى، وكل شئ، بدليل أنه إذا سلبت منه أصبح جيفة ـ الشئ الذى يدبر مادتك ويحييها ويجعلها قادرة على الفكر وعلى استخدام الطاقة، وعلى كذا وكذا، هل تستطيع أن تعرفها وتدركها؟ إن العقل يقف ويقول: لا، إذن فمخلوق من مخلوقات الله هو فى ذاتك ونفسك، وليس بعيدا عنك، ومع ذلك لا تستطيع إدراكه، فإذا كنت لا تستطيع إدراك مخلوق لله فكيف تريد أن تدرك خالقا؟ هذا عبث، ونقول لمن يجادل: هذه هى روحك التى أنت مؤمن بأنها سر حياتك، وسر حركتك، أين هى منك؟ أفى رأسك؟ أم فى أنفك؟ أم فى قدمك؟ إذن فليس مكان من الجسم أولى بها من مكان، كذلك الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ليس مكان فى ملكه أولى به، فإذا كان ذلك فى أمر مخلوق لله وعجزت عن إدراكه كيف تريد وأنت عاجز عن إدراك مخلوق أن تتسامى إلى إدراك خالق؟! إذن العظمة فى أنه لا يدرك، فإذا جاءت الأديان نتصور أى تصورات مادية نقول لها: أنتم أحرار فى تصوركم، وما على السماء إلا أن تصحح التصور: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾(٢) ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(١) ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾(٣) ذلك هو

(١) سورة الشورى، من الآية: ١١.

(٢) سورة الإخلاص، الآيتان: ٣، ٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

تصوركم الذى يجب أن ينبنى عليه إيمانكم، فإن آمنتم بهذا التصور فمرحبا، وإذا لم تؤمنوا فلكم دينكم ولنا ديننا، ما دام منهج السماء الذى يريده الحق مطبقا فى الأرض، إذن فمنهج السماء هو المراد، وهذا ما يعنى بأن الأسلام قد بنى على الأركان التعبدية. جاء الإسلام ليصحح هذا التصور، وآفة الناس، وآفة العقل البشرى كله أن يخطئ فى التصور، لو وقف الإنسان بفكره عند التعقل لانتهى الإشكال، أن تتعقل أن وراء هذا الكون قوة حكيمة مدبرة، منها بدأنا وإليها نعود، ذلك هو التعقل، أما أن تريد أن تتصور هذه القوة ما شكلها؟ فأنت نقلت العقل إلى ما ليس فى مجاله، هل العقل له أن يتصور؟ العقل له أن يتعقل فقط، أما إذا تصور فسيحدث الخلاف، ونضرب لذلك مثلا يستقر فى أذهان المؤمنين بالله: إننا نجلس فى حجرة ثم يدق الجرس، هنا منطق التعقل يقول: إن طارقا بالباب، هل نختلف فى ذلك؟ تلك منطقة التعقل، فإذا دخلنا فى منطقة التصور للطارق اختلفنا، واحد يقول: هذا رجل، وواحد يقول: هذه امرأة، وواحد يقول: هذا شاب، وواحد يقول: هذا إنجليزى، وواحد يقول: هذا فرنسى، وواحد يقول: بشير، وواحد يقول: نذير، وواحد يقول... إذن أى منطقة اختلفنا فيها؟ إنها منطقة التصور. اختلفنا فيها، وأصبح لكل منا تصور، فلو أننا اكتفينا بتعقل قوة تطرق الباب، وتركنا للقوة التى تطرق أن تقول عن نفسها ما تشاء، من أنت؟ يقول: أنا اسمى فلان، لحسم الموضوع، وجئت لكذا وكذا وكذا. إذن يكفى العقل البشرى أن يؤمن بعقله، ويتعقل أن وراء الكون هذا قوة، ثم أترك القوة لتعبر عن نفسها، فتقول على لسان من تأتمنه وتعطيه الحجة والعلامة: إن اسمه الله، وإنه يريد منك كذا وكذا وكذا وكذا، إذن فقد حسم البلاغ عن الله التصور لله، والتصور لمنهج الله، والخلافات كلها نشأت فى التصور، نقول: كان يكفى أن تتعقلوا وجود الله. الإسلام جاء عند هذه وقال: نتعقل وجود الله ثم نترك للقوة المبلغة عن الله أن تعطينا الصورة اللازمة، لأنه هو الذى يقول عن نفسه ما شاء، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وماذا تريد منا؟ أريد منك أن تفعل كذا، وألا تفعل كذا، والذى يفعل كذا ماذا تصنع له؟ هو يقول: جزاؤه الجنة، والذى لا يفعل جزاؤه النار. وهذا

الكلام من الذى يقوله؟ الله، وليس بتصوراتنا نحن، ولذلك فإن الحق قد ترك فى الخلق مجالا يكذب الكافرين به، والمدعين الألوهية لسواه، الذى يعبد الشمس نقول له: تعبد الشمس يعنى تطيعها فيما تقول، افعل ولا تفعل، ماذا قالت الشمس؟ الشمس قالت افعلوا ماذا؟ ولا تفعلوا ماذا؟ نقول له: أنت كذاب، إله بلا منهج، والذى سيعبدها ماذا ستفعل له؟ لاشئ، والذى لا يعبدها ماذا ستفعل معه؟... لا شئ. ومعنى وجود إله أنه يعبد، أى يطاع فيما يأمر، وحيث إنه لا منهج لها فيكون هذا مجرد كلام كذب من أوله إلى آخره.

جاء الإسلام ليضع هذه القواعد ليكمل حركة الحياة على نظام يمنع التصادم فيها، ويجعل حركة الحياة كلها حركة متعاونة متساندة، لا معاندة، فإذا كان الفساد فيها قد ساد، وأن أهل الديانات الموجودين قد انحرفوا إلى المادية فلابد أن تجئ بعدها ديانة روحية صرفة، إذن فوجود المسيحية كان منطقا طبيعيا يصوب المادية اليهودية؛ لأن المادية اليهودية ليس بها قيم أبدا، كان لابد أن تجئ المسيحية بقيم فقط، هل فيها منهج يحكم حركة الحياة بافعل كذا ولا تفعل كذا؟ لا، إذن فالمسيحية جاءت حقا لأنها الجرعة المفقودة عند اليهودية، الجرعة التى هى الروحانية. وحكاية المادية هذه لم يقرها منهج السماء ولم يقر دعوة المادية؛ فالمادية لا يمكن أن تنهض على قدمين متساويين إلا بروحانية، وحيث إن اليهود خاضوا فى المادية ما شاءوا، حتى قالوا: ﴿حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾[1] فهل هناك أكثر من ذلك؟! حتى نرى الله جهرة، يعنى لابد من شئ مادى أمامنا، وربنا رزقهم المن والسلوى، فيقولون: لا نريد هذا بل نريد أشياء تنبتها الأرض، إلى آخره. فكان لابد أن تجئ المسيحية بجرعة روحية، هذه الجرعة الروحية تصحح الانحراف الذى سبق، وكان المفروض أن تتعاون اليهودية والمسيحية على منهج يحكم الأرض، لكن حصل العداء التقليدى والخلاف، وكان من نتيجته أن حدث ما حدث من اليهودى إلى المسيحى، فكان لابد أن يجئ الدين الجديد دينا جامعا لمنهج مادية

(١) سورة البقرة، من الآية: ٥٥.

الحركة فى الحياة، ومنهج القيم أيضا فى دين واحد، حتى لا يقول المسيحيون: أ هذا هو الدين روحانية وعبادة وبدون حركة حياة وحتى لا يقول اليهود هذا هو الدين: مادية صرفة، ففى صلب دين واحد يأتى دين جامع لحركة الحياة المادية، ولكن بقيمها. ولذلك اسمعوا قول الله سبحانه: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾(١) هذه هى دقة الأداء القرآنى، يعنى المؤمن بالله لا يطبع على شدة مطلقة ولا يطبع على رحمة مطلقة، إذن فالمؤمن ليس مطبوعا على شدة مطلقة ولا على رحمة مطلقة، ولكنه ينفعل للأحداث فى الكون، فالحدث الذى يتطلب شدة يكون شديدا، والحدث الذى يتطلب رحمة يكون رحيما، ولذلك يقول فى آية أخرى: ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾(١) فالمسلم لم يطبع ذليلا على إطلاقه، ولم يطبع عزيزا على إطلاقه أيضا لأن هناك موقفا يتطلب الذلة لأخيه المؤمن، وموقفا يتطلب العزة والاستعلاء بالنسبة للكافر، إذًا فالمسلم ينفعل لمنهج ولا ينفعل لطبع ثابت: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا**﴾(٢) القيم كلها: ﴿**يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾(٢) ـ كل هذه الأعمال قيم: ﴿**ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ**﴾(٢) ولماذا كان المثل فى التوراة هكذا؟ لأن أهل التوراة جعلوها مادية صرفة، فأعطاهم الله العنصر المفقود عندهم، وقال أنا سآتى برسول صنعته كذا وكذا تكون كل أعماله قيمية، أى بالعنصر المفقود عندكم، وفى المسيحية: ﴿**وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ**﴾(٢) ليس قيمية؛ لأن الإنجيل كله روحانى، وكله قيمى، وكله محبة، فيلزم العنصر المادى فى الحياة: ﴿**وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ**﴾(٢) ـ مادى ـ ﴿**أَخْرَجَ شَطْأَهُ**﴾(٢) ـ مادى ـ ﴿**فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ**﴾(٢) ـ إذن فضرب الله المثل فى التوراة بالعنصر المفقود عند اليهود ـ وهو القيم ـ وضرب الله المثل فى الإنجيل بالعنصر المفقود ـ وهو حركة الحياة وماديتها ـ ليجئ الإسلام

---

(١) سورة الفتح، من الآية ٢٩

(٢) سورة المائدة، من الآية ٥٤.

(٣) سورة الفتح، من الآية: ٢٩

مستوعبا لمنهج يتضمن حركة الأرض المادية، ويتضمن قيم السماء الروحية، ليعتدل ميزان الوجود اعتدالا يضمن به حركة الحياة المسعدة للمؤمنين والمسعدة لمن عاش فى رحابهم من غير المؤمنين.

منطق الحق فى الإسلام:

جاء الإسلام مكملا لدين الله فى الأرض، ومتمما لنعمة الله على خلقه، وأصبح رضا الله معقودا بالتمسك بما أنزل على رسوله محمد ﷺ ، وجعل الحق - سبحانه وتعالى - رسالة الإسلام رسالة خاتمة، فليس لأحد أن يستدرك عليها، ولا أن يتزيد عليها، وكل شغل المؤمن بها إن كان حاكما أن يرعى حدود الله، لتنفذ كما أراد الله، وإن كان محكوما فعليه أن يطبق منهج الله فيما ولايته فيه على نفسه، وفيما ولايته فيه على ما سواه، وليدع كل مخالف لمنهج الله فيما ولايته عليه ليلقى من الحق جزاءه فى الدنيا ليكون عبرة؛ لأن الله لا يؤخر كثيرا من قضايا الكون إلى الآخرة، وإلا لعاث الذين لا يؤمنون بالآخرة فى الأرض فسادا، فلو لم يأخذ الله كل ظالم للبشر بمخالفة منهج الله فى الحياة الدنيا، لتشكك كثير من الناس فى مناهج الله، ولذلك يقدم الحق قضية سائرة فى الزمن ﴿ **وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً** ﴾[1] - الظالمون الذين يفسدون فى الأرض بظلمهم، وبطغيانهم لا يسلط الله عليهم أخيارا؛ لأن الخير دائما لين الطبع رقيق القلب، فرحم الله قلبه وطبعه أن يحمله الانتقام ممن ظلم، فيسلط الله على من ظلم ظالما قد نزعت من قلبه الشفقة والرحمة ليؤدب، والأخيار مطمئنون لأن الله لم يكلفهم حتى تأديب الظالمين. والذى ينظر فى التاريخ قديما وحديثا لا يجد ظالما فى الأرض إلا منى بأظلم منه، والتاريخ الحديث الذى عشناه يشهد بذلك كله، فكم من ظالم عذب بأدوات استجلبها ليظلم بها الناس، كل ذلك مشهود لنا ليطمئننا الله على أنه سبحانه يدفع الناس بالناس، فمن دفع بالكلمة الطيبة والأسوة الحسنة فذلك سنة الأخيار مع الأشرار، ومن لم يقبل ذلك ولم يرض به سلط الله عليه من يلوى يده،

---

(١) سورة الأنعام، من الآية: ١٢٩.

ويذل عنقه، ويذيقه جنس ما أذاق سواه، هذا هو منطق واقع الحياة، فعلى الذين يؤمنون بمنهج الله من مختلف الديانات أن يواجهوا عدوا متحدا عليهم، وهم الملاحدة الذين ينكرون صلة السماء بالأرض، وعليهم جميعا أن يتركوا تصوراتهم في الله، وعلى المنطق الحق أن يقول ما قاله الله عن نفسه تصورا في ذاته، وتصورا في صفاته، فإن اقتنع بها أصحاب الديانات الأخرى فبها، وإن لم يقتنعوا فيكفينا أن نقول كما قال الله : ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾[1].

مادام منطق الحق في الإسلام قد وجدت له أمة لها غالبية إسلامية، ودولة نحب أن تكون أيضا دولة إسلامية، مادام منهج الله سيطبق، وعلى الذين لا يرضيهم أن يطبق منهج الله أن نناقشهم.

هب أن قوة من البشر سيطرت على أمن دولة من الدول، وكانت لها أغلبية قننت ما شاءت من قوانين البشر، أيكون للأقلية أن تخرج على ما قررته الأغلبية؟ لا، إنها دائما مطالبة بأن تنفذ ما أقرته الأغلبية، ولو كان من صنع الناس أنفسهم، فإذا كانت الأغلبية قد ارتضت دينا لله، ولا تستعلى لتقول: إن هذا من عندى، حتى لا يقال: إن أمة تريد أن تستعلى على طائفة لتحكمها بما شاءت، نحن لا نحكمها بما شئنا، وإنما نحكم بما شاء الله، فإذا كان عند إحدى الديانات منهج ينظم حركة الحياة من ألفها إلى يائها، فليتقدموا به إلينا، وسيقارنه العقلاء إن وجد بما عندنا من دين الله، فإذا وجدناه خيرا مما أنزل الله فليطمئنوا إلى أننا سنأخذ به، ولكن الحق لم يدع للناس مجالا، فقال إنى أنزلت القرآن على محمد، وجعلته مهيمنا على ما سواه، وعلى الذين يريدون لمنهج الله أن يسيطر أن يكتلوا كل قواهم لأعداء الله، والملاحدة بالله، لأن شغلهم بالتوافه في التصورات في ذات الله، وفي صفات الله أمر تجاوز منطقة التعقل، وما دام أمرا تعدى منطقة التعقل فليس لنا أن نتعصب له، إلا إن جاء ما اتفقنا على الإيمان به، وعلى الذين يرون في دينهم حقا أن يعرضوه بسماحة هذا الدين، لأننا يحكمنا مبدأ، وهو أننا لا نكافئ

(١) سورة الكافرون، الآية: ٦.

من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه، الذى يعصى الله فينا لا نكافئه نحن بمعصية الله، وإلا فقد أعطيناه حجة على أننا متساوون فى المعصية، لم نعطه المقرع الذى يقرعه دائما، إنه يعصى الله فينا ومع ذلك فنحن نطيع الله فيه، هذا هو التقريع السلوكى الذى يجب أن يكون عند منطق الغالب بمنهج الله فى الأرض، وعليه أن يعرض دينه عرضا سمحا، لأن الحق أعلن ذلك، وهو أن الدين ـ أى ما يكون بالاعتقاد ـ لا يمكن أن يكره عليه الإنسان، يكره قالب الإنسان، تكرهنى بالقوة وتقول لى اسجد لى، عظمنى، امدحنى بشعر، قل فى كلاما؟! أنت تكره قالبى، ولكن هل يمكن لأحد أن يكره قلب أحد ليقول لك أحبنى، إذن فالعقائد لا يكره عليها، ولو أراد الله أن يخضع الخلق جميعا لقال كما قال فى كتابه: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾(١).

ولكن هل يريد الله أعناقا أم يريد قلوبا؟ إنه يريد قلوبا، والذى يكره على مبدأ من المبادئ حتى فى مبادئ البشر، إذا رأيت بشرا يكره بشرا على مبدأ من المبادئ بقوة السوط وجبروت السلطان، فاعلم جيدا أن الذى أكره على المبدأ غير مؤمن به؛ لأنه لو كان مؤمنا به هو لقال: وماذا فى هذا المبدأ؟ أنا لو عرضته على الناس لاستقبلوه بالرضا، ولكنه يعلم جيدا أنه لا يقبل أبدا، ويقول: إن لم يكن وراء المبدأ سوطى وقهرى وظلمى وجبروتى، فلن يقتنع الناس بهذا؛ لأننى أنا شخصيا غير مقتنع به.

إذن فإذا رأيت إكراها على مبدأ أو إرهابا على رأى فاعلم أن صاحبه غير مقتنع به، ولذلك: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ ﴾(٢) إنما يريد الله انقياد القلوب، فما دام الأمر كذلك فعلى المؤمن أن يعرض منهجه عرضا سمحا، ولا يحاول أن يكره على المبدأ؛ لأن الإكراه على المبدأ سوسة تنخر فى ذلك المبدأ، إنك إذا أكرهت

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٣ ـ ٤.

(٢) سورة يونس، من الآية: ٩٩.

إنسانا على ذلك المبدأ تسلل إليه نفاقا، وفعل ما يفعله من شر لهذا المبدأ، ولذلك يعرض الحق: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(١) ما علة ذلك يا رب؟ ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(١) الأمر واضح فلماذا إذن؟ حين لا يتبين الرشد من الغى يأتى الإكراه، ولذلك حين يعرض الحق المنهج، ويعرض منهج الداعين إليه، يضع ذلك أسوة فى رسول الله ﷺ ، هل الرسول يقول لخصومه من الكفار ومن المشركين ومن أهل الكتاب الذين كفروا به: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(٢)؟ أيتشكك محمد؟ يقول: إنا أو إياكم لعلى هدى؟ لا، إنه يقول: الهدى أمر واحد، والموافق له منهج واحد، فإما أن يكون أنتم وإما أن نكون نحن، هو مطمئن إلى أن منهجه لابد يفوز، ولذلك طلب من خصومه أن يقفوا من هذه المسألة بمعيار سليم، بمعيار غير غوغائى، ولا جماهيرى؛ لأن الجماهير تلقى تبعة الأحكام بعضها على بعض، كما تكون مظاهرة قوية، هذا يقول كلمة، وهذا يقول كلمة، يرمى تبعة مسئوليتها على سواه، أنا لم أقل، لكن الذى يريد أن يقف، يكون الحكم منه هو، ولذلك يقول الحق لهؤلاء الذين عارضوا منهج محمد: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾(٣) بدون غوغائية الجماهير، مثنى: يعنى كل اثنين يجلسان معا ليتناقشا فى مسألة محمد، لماذا اثنان أو فرادى؟ لأنه عندما يكون اثنان يتناقشان فى مسألة يقل اللجاج، لأنه لا يوجد طرف يقول فلان انهزم أمام فلان، لا، إنهما الاثنان اللذان يتناقشان.

إذن ساعة يعرض الحق المنهج يريد من كل واحد ألا يلقى تبعة عقيدته على سواه، ويقول شوقى ـ رحمة الله عليه ـ فى قصة مصرع كليوباترا، فى يوم أكتيوم، كان بين كليوباترا وبين خصومها، وانهزموا وأشاعوا أنهم انتصروا، والشعب أخذ يردد الانتصار مثل ما حصل فى التاريخ الحديث، فشوقى ـ رحمة الله عليه ـ

(١) سورة البقرة، من الآية: ٢٥٦.

(٢) سورة سبأ، من الآية: ٢٤.

(٣) سورة سبأ، من الآية: ٤٦.

يصور الموقف تصويرا دقيقا حتى لا تكون أحكام الحقائق خاضعة للغوغائية. يقول:

أسمع الشعب ديون ... كيف يوحون إليه
ملأ الجو هتافا ... بحياتى قاتليه

وكثيرا ما هتفنا لقاتلينا !!

أثر البهتان فيه ... وانطلى الزور عليه
يا له من ببغاء ... عقله فى أذنيه

سمع فقال، فربنا يقول: لا، مسائل العقائد لا تسمع فيها غوغائية، كل واحد يأخذ قضية العقائد على أنه مسئول عنها، ولن يشفع له أن يقول: سمعت فلانا يقول، ولن يشفع له أن يقول: إجماع الغوغائية، أو الجماهيرية قالت كذا، بل كل واحد معلق من عرقوبه، فعلى الإنسان أن يناقش قضية العقائد، لا بغوغائية تسير وراء الصياح كالأنعام !!.

●●●

الإسلام لرب العالمين

حين نسلم زمامنا إلى الله تعالى يكون فى ذلك براءة من استعلاء بعض البشر على بعض البشر، ولذلك يقول بعض العارفين من الصوفية فى السجود الذى تسجده لله فتكره أن تنزل بجبهتك على الأرض لغير الله، بمعنى أنك سجدت لواحد، حتى يتكرر سجودك لمظاهر القوة فى الأرض بعد أن تكون قد سجدت لإله واحد،اعمل لوجه واحد يكفك كل الأوجه، فالإيمان إعزاز للنفس البشرية.

ونضرب لذلك مثلا: بأن ملكة سبأ حينما جاءت إلى سليمان قالت: ﴿**وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ**﴾(١) وليس: «أسلمت لسليمان» أسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

وفى قصة موسى ـ عليه السلام ـ: أن الذى جاء به موسى ليس من السحر ولكنه من الجنس الذى قد يفهم أنه السحر، والفارق بينه وبين السحر أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما صنع له التجربة، جعل موسى يخاف، ومعنى يخاف أن العصا انقلبت حية بالفعل، والساحر يلقى العصا وتظل عصا، ولكن المسحور هو الذى يراها ثعبانا، ولذلك نرى دقة العطاء فى القرآن، يقول: ﴿ **سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ**﴾(٢) و(سحروا) لا تنسحب على الحبال، فتحولت إلى حيات، لا، بدليل أن ساعة أن جاء موسى برغم التجربة الأولى فى الوادى المقدس، ساعة أن جاء يلقى العصا: ﴿ **لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ**﴾(٣) لأنه عندما ألقى السحرة حبالهم رآها حيات، وقد يتصور أنه لا فرق بينه وبينهم، فقال له ربنا: لا، ﴿ **إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ**﴾(٣) وعندما قال له إنك أنت الأعلى يعنى أيضا عصاك ستكون حية مثلهم، وما دامت ستتحول إلى حية فستكون أعلى من حيَّاتهم، فلما رأى

---

(١) سورة النمل، من الآية : ٤٤.

(٢) سورة الأعراف، من الآية: ١١٦.

(٣) سورة طه، الآيتان: ٦٨ ـ ٦٩.

السحرة هذا التحول، ماذا جعلهم يؤمنون؟ لقد آمنوا لأنهم حينما رأوا العصا حية، ولم يروها عصا، ويرون حبالهم حبالا، قالوا: ليس هذا من السحر. هل قالوا: إننا آمنا لموسى؟ أم قالوا: آمنا برب موسى؟.

هذه هى عظمة الإيمان مع أنهم مغلوبون أمام موسى، ومع ذلك قالوا: ﴿**آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[1] تلك هى عظمة الإيمان فى أنك لا تسلم لى زمامك لى ولا أنا أسلم لك زمامى، وإنما أنا وأنت أسلمنا لله، فلا يوجد طغيان من واحد منا على الآخر، وتظل الكلمة لله رب العالمين.

إذن فالذين يفرون من أن يحكم منهج الله حريصون على أن يستذلوا الناس بإسلامهم لمناهجهم، ولكن لو أنهم كانوا يريدون الخير لأسلم هو وجهه وأسلمنا كلنا وجوهنا لمن هو أعلى منا، ما هى الغضاضة فى ذلك؟ لاغضاضة فى ذلك أبدا.

إذن فالإسلام أخذ ميزة وأخذ وصفا، تلك هى أمة محمد ﷺ.

وأخذ أيضا وصفا آخر، وهو أن كل أمة محمد ﷺ امتداد لرسالة محمد ﷺ، ذلك لأنها آخر الرسالات، ومحمد ﷺ آخر الأنبياء والرسل، وهذه هى الضمانات:

أولا ـ لأن المنهج محفوظ، ولسنا فى حاجة إلا إلى البلاغ بالمنهج؛ ولذلك فإن العلماء الذين يحملون منهج الله للناس، يصفونهم كأنبياء بنى إسرائيل، لماذا؟ لأن هؤلاء يحملون المنهج للناس، ويظن الناس أن العلماء الذين يحملون المنهج للناس هم العلماء من أصحاب العمائم، والذين تعلموا فى الأزهر والذين يتعاطون صناعة الدعوة، لا، فكل من علم حكما من أحكام الله فهو عالم به، إذن كلّ واحد، ولذلك يقول الرسول ﷺ «**نضر الله وجه امرئ سمع مقالتى فوعاها وأداها إلى من يسمعها؛ فرب مبلغ أوعى من سامع**» ومادام قد تعلم حكما من أحكام الله يكون «عالما» به.

---

(١) سورة الأعراف، من الآية: ١٢١.

هنا يجب أن نلتفت لفتة وهى: أن نحمل أمانة الإسلام كعلم، ونحيى الإسلام كتطبيق، نحن نريد تحقيق الإسلام، وتطبيق الإسلام، فهب أننا منينا بقوم أبعدونا عن تطبيق الإسلام كمنهج سلوكى للبشر، فماذا يكون موقفنا؟ موقفنا على الأقل أن نكون أمة تحقق الإسلام، بمعنى أن نحمل الإسلام كعلم إلى أن يأذن الله لخلقه برجل يحمل مبادرة سماوية، ويقول عن العلم والتحقيق: هذا هو الموجود نطبقه، أما أن نقول بأننا لم نحقق الإسلام فنترك الإسلام، لا، دع الشمعة مضيئة وحافظ عليها حتى لا تنطفئ، لعل واحدا يأتى ويأخذ من هذه الشمعة قبسا فيشعل به كل الدنيا، إذن أمة مصر إن لم تكن قد حققت الإسلام منهجا وسلوكا فهى مطالبة ـ بنعمة الله عليها بالأزهر ـ أن تحافظ على الإسلام تحقيقا حتى تحفظ دين الله للدنيا، حتى يأذن الله لمن شاء أن يجرى الخير على يديه ليطبق منهج الله، إياكم أن تقولوا: وما غناؤنا بعلم الإسلام؟ نقول له: احفظ الإسلام محققا، وإن لم يكن مطبقا، وبعد ذلك طبق الإسلام فيما ولايتك فيه على نفسك، وإذا ما طبق كل واحد منا الإسلام فيما ولايته فيه على نفسه لسقط الحاكمون بغير الإسلام وحدهم، ولو أن الحكام يعلمون أن الناس يحبون منهج الله، بأن يروهم يطبقونه فى نفوسهم، لتقربوا إلى شعوبهم بتطبيق منهج الله؛ لأن الحكام الآن يريدون أن يروا شعوبهم راضية عنهم، فإذا علم الحاكم أن الشعب يطبق شرع الله فيما ولايته فيه على نفسه، علم أنه عشق منهج الله، فليتقرب الحاكم إلى شعبه بتطبيق منهج الله، لأنهم طبقوا منهج الله فيما ليس للحكومة دخل فيه، إذن مهمتنا فى مصر أن نسعى ونلح ونجاهد فى أن نطبق الإسلام، ولكن إذا لم نجد هذا نحقق الإسلام، نصونه علما يجلى عقيدة الإسلام تجلية صافية، ويبين حقيقة القرآن، وبأن الله قد كنز فى القرآن كنوزا سيكتب الزمن أسرارها، حين يأتى ميلادها ويتحقق، وليس ذلك من كلام البشر؛ لأنه تعرض لأشياء لم تخطر ـ أيام نزل القرآن ـ على قلب محمد ﷺ . فعملنا الآن يجب أن نعد له، نجلى الإسلام عقيدة ونجلى الإسلام عبادة، ونجلى الإسلام تعاملا، والعقيدة هى الإيمان، والإيمان هو اطمئنان القلب إلى

قضية ما، بحيث لا تطفو لتناقش من جديد، هذا هو معنى الإيمان، الله موجود، الله قادر، الله خالق، هذه هى قضايا عقدية لا تطفو مرة ثانية، لكى تناقش من جديد، إن طفت إلى العقل لتناقش من جديد فهى ليست إيمانا، ولكنه مشروع إيمان، وفرق بين أن تؤمن بالأشياء متعقلة، وبين أن تؤمن بها متصورة، والمطلوب منك أن تتعقلها لأن العقل يعطى الإيمان، والإيمان لا يكون بالحواس أبدا، لا يقال أنا أومن بأنى بمسجد كذا، أو أومن بأنى أتكلم، هذا النوع من الإيمان أمر محسوس، ولكن الإيمان الحقيقى يكون بأمر غيبى، ومادام بأمر غيبىْ فإنه يبنى على قوة دليله، وعندما يستقر يكون عندى اليقين.

مراحل اليقين:

واليقين له مراحل، مرة يكون علما فقط، اسمه علم يقين، ومرة يكون عين اليقين (عين) انتقل إلى شئ من الحس، ومرة يكون حقيقة يقين، فاليقين الإيمانى يمر بمراحل ثلاث: علما وعينا وحقيقة.

ولنضرب لذلك مثلا حتى تتضح الصورة:

هب أننى قلت لك: إننى رأيت فاكهة فى أندونيسيا حجمها حجم البطيخ، ولونها لون البرتقال، وطعمها طعم الموز، ورائحتها رائحة التفاح، وأنا أستاذ لك وصدقتنى، فيقال إننى نقلت لك صورة علمية أصبح بعدها عندك علم يقين على مقدار ثقتك فى كلامى، علم يقين كصورة ذهنية، وبعد ذلك قمت ودخلت، وجئت إليك بنفس الفاكهة، ووضعتها أمامك، فأكون قد انتقلت من علم يقين إلى عين يقين، وبعد ذلك أحضرت سكينا وشققت الفاكهة وأعطيتك منها لتذوقها، هنا حقيقة اليقين.

إذن حقيقة اليقين هى أعلى مستوى فى اليقين، ولذلك عندما سأل النبى ﷺ حارثة قال له: كيف أصبحت؟ قال له: أصبحت بالله مؤمنا حقا، فالنبى ﷺ قال له: حقا هذه كبيرة، وتعنى أن لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقال: «عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها» الذهب مثل الحصا، وكأنى أنظر

إلى أهل الجنة فى الجنة يـنعمـون، وإلى أهل النار فى النار يعـذبون. يعنى المسـائل الغيبية كأنها أمامى، قال له النبى ﷺ : هذه هى الحقيقة.

والحق ـ سبـحـانه وتعـالى ـ حين أراد أن يعطينا هذه المراحل اليـقـينيـة قـال: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ**﴾(1) ـ إذا كنتم تصـدقـوننى فـهـذا هو علم اليـقين ـ ﴿**ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا**﴾(2) سوف ترونها هـكذا أمامكم، فانتقلت من علم اليـقين إلى عين اليقين، وفى هذه السـورة اقـتـصـر على هاتين المرحلتـين: المرحلة الخـاصـة بعلـم اليـقين، والمرحلة الخاصة بعين اليقين، لكن فى سورة ثانية أعطانا حـقيقة اليقين، ففى سورة الواقعة قال: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ٧٧ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٨٠ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ٨٢ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ٨٥ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ٨٦ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٨٧ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ٨٩ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ٩٠ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ٩١ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ٩٥**﴾(3) ولا مجادلة فى هذا.

ونقـول: لماذا جـاءت (حق اليـقين) فى مـسـألة الكفـار، ولـم تأت فى مـسـألة أصحاب الجنة؟

نقـول: لأن أهل الجنة المؤمنين مكتـفون من الله بعلـم الـيقين، أمـا الكفار فـهـم الذين يتشككون إلى أن يأتى لهم حق اليقين، ويصطلوها.

---

(1) سورة التكاثر ، الآيات: ١ ـ ٥.

(2) سورة التكاثر، من الآية: ٧.

(3) سورة الواقعة، الآيات: ٧٥ ـ ٩٥.

حـول معنـى الإسـلام:

الإسلام معناه إلقـاء زمام الحركة الإنسانية فى الإنـسان إلى منهج الله، بحيث يختار الإنسان فى حركـته ما قال له الله: «افعل» وينتهى بحركته فيـما قال الله فيه «لا تفعل» وحركـة الحياة بالنسبـة للأمر والنهى فى منهج الله ليست كلها خـاضعة لـ «افعل» ، «ولاتفـعل»، وإنما يخضع لافـعل ولاتفعل فى الأمـور الضرورية التى يجب أن يفعل فيها الإنسان، والأمور الضرورية التى يجب أن ينتهى عنها الإنسان، فلم يترك الله استقامة ضروريات الحياة لاختيار الناس، ولكنه حكمها بمنهجه، وما بقى بعد ذلك فهو مباح للإنسان أن يفعله، وله ألا يفعله، ولم يترتب على الفعل أو عدمه فى كل مباح خارج عن افعل ولا تفعل ضرر يتعلق بالحياة، بل تستقيم الحياة بالفعل كما تستقيم بالترك، ولكن إقبال الإنسـان على تقييد حركة نفسه الاختيارية لا ينشأ إلا إذا كان الإنسـان موصولا باحترام أمر المكلف، واحـترام أمر المكلف لا يكفى فيه أن تؤمن به، وبقدرته، وبعظمته، ولكن يجب أن توالى تذكير نفسك بهذا الإيمان، قد تؤمن بشئ ولكنه قد لا يكون فى بؤرة شعورك دائما، فأنت تؤمن قطعا أنك ميت، ولكن ذلك لا يستـقر فى بؤرة شعورك، بل تغـفل عنه وكأنك خالد فى الحيـاة، ولذلك يصور الرسول ﷺ ذلك، فيـقول: «**لا أرى يقينا أشبـه بالشك من يقين النـاس بالموت**» هو يقـين، ولا يمكن لواحـــد أن يفكر أبـدا فى أنه لا يموت، ولكنه أشبه بالشك؛ لأن الناس يغفلون عن هذا اليقين فى حركتهم وكأنهم مخلدون.

ولذلك أبهم الله أجل الإنسان، لم يجـعل له سنا محددة، ولم يجعل له سـببا محـددا، ولم يجعل له شكلا محددا، ليكـون الإنسان دائما على استـعداد أن يلقى الله فى أية لحظة، كل ذلك مرتب عند الناس فى حركتهم على اليقين بالموت!! هم متـيقنون، ولكنه يقـين أشبه بالشك، ولذلـك يجب أن يتذكروا دائـما ذلك الموت، فيعطى الله الموت فى الحياة صورا متعددة، فنجد جنينا يجهض فى مختلف أعماره وهو جنين، فهـذا ابن يوم،وذلك ابن يومين، إلى أن تنتهـى، ونجد طفلا، ونجـد فتى

ونجد يافعا. ونجد مريضا يصح، ونجد سليما يحتضر، كل ذلك لماذا؟ حتى يبرز الله تعالى قضية اليقين بالموت إبرازا يظل فى بؤرة الشعور.

إذن فمطلق اليقين فى قضية لا يكفى أن يحمل نفسك على القضية إلا إذا واليت تذكير نفسك بالقضية، وألا تجعلها تذهب إلى حاشية شعورك البعيد، بل تظل فى بؤرة شعورك دائما لتتصرف على مقتضاها.

كذلك الإيمان بالله، يقين بأنه تعالى موجود، ويقين بأنه له الكمالات المطلقة، قد توقن ذلك ولكن لا تعمل على مقتضاه، ولا تعمل على مقتضاه لأنك تغفل هذه المسألة، وتصير فى حاشية شعورك، صحيح إذا جلست لتتذكر انتهيت إليها، فيريد الله تعالى أن يديم على الإنسان قضية الإيمان به استدامة لا يغفل عنها أبدا، حتى تصدر حركته فى الحياة موافقة لمنهجه الذى أنزله، ولا يكفى أن تؤمن به، بل لابد أن تجدد ولاءك الإيمانى دائما، وتجديد الولاء الإيمانى يأتى عندما يناديك ربك كل يوم خمس مرات ليذكرك بقوله: «الله أكبر»، على أن الإيمان به أولى من كل حركة تشغلك عنه فى الوجود، ومعنى ذلك أن كل شئ يشغلك عن ذلك الإله، الإله أكبر منه؛ لأنه هو واهب حركتك، وهو واهب فكرك، وهو واهب المادة التى تتفاعل معها، فلا تقل: شغلنى كذا، يقول الله لك: الله أكبر من كل ما يشغلك عنى؛ لأن الذى شغلك عنه من عطائه هو فكيف يشغلك عطاؤه عنه؟ هل أنت تريد فقط أن تكون مع النعمة، والله تعالى لا يريدك أن تكون مع النعمة، ولكن إذا دعاك المنعم تركت النعمة، وذهبت إليه، ذلك هو جدال اليقين الإيمانى، فشرع الله لك الولاء الإيمانى بالصلاة، تدعى إليها كل يوم خمس مرات، وإذا ما نظرت إلى ذلك الولاء الإيمانى لم يتركه لك تشريعا لتتفكر أنت وتذهب إليه خمس مرات، ولكن جعل لك شعارا ينادى ليذكرك.

ولنفهم جيدا معنى « الله أكبر»، يعنى أن كل شئ يشغلك عنه هو أكبر منه، فإذا ما ذهبت إليه وهو داعيك، وداعيك من داعيك؟! إنه ربك، وداعيك لا لتأخذ إليه شيئا من نعمته عليك لترده إليه، لا تدخل بهدية، وإنما دعاك ربك لتأخذ منه

أنت الهدايا، فهو تعالى يحب لصنعته أن ترتقى؛ ولذلك يجدد لقاءه بها، فيأمرك تكليفا أن تذهب إليه وإلى دعوته كل يوم خمس مرات، أرونى مسيطرا على جماعة يأمرهم ويكلفهم أن يذهبوا إلى وده كل يوم، ولو مرة واحدة، إن الإنسان قد تمر حياته كلها ولا يحظى بلقاء من يحكمه مرة واحدة، وإذا عن له ما يريده يطلب ويكثر ويلح ويطرق الأبواب حتى يلقاه، وإذا ما سمح له أن يلقاه ماذا يكون الموقف؟ يحدد هو الزمان، ويحدد هو المكان، ويحدد المدة، ويحدد موضوع الحديث، هذا إن أجابك، ولكن ربك المستغنى عنك يقول لك: أنا أدعوك كل يوم إلى رحابى خمس مرات، وأنا لا أقتصر فى لقائك على خمس مرات، إن أردت أن تلقانى فى كل لحظة فمرحبا، أنا لا أمل حتى تمل، وإن أردت أن تديم معك وقتى كله أنا لا أمل حتى تمل؛ ولذلك يجد المقربون إلى الله أنهم بفرضية الصلاة عليهم قد أعزهم الله وجعلهم فى رحاب حضرته ليديم عليهم عطاءه، فما دام الأمر كذلك هذا هو الرجل المقرب إلى الله يدرك هذه المسألة التى قد تمر على كثير منا دون فكر ودون وعى، يقول:

حسب نفسى عزا بأنى عبد يحتفى بى بلا مواعيد ربه
هو فى قدسه الأعز ولكن أنا ألقاه متى وأين أحب

فى الوقت الذى أحدده أذهب فيه إلى ربى.

ومن العجيب فى أمر الله مع خلقه أن يترك الله الأعلى إنهاء المقابلة للعبد، على حين جرت عادة العظماء أن ينهوا هم المقابلة بأن يقفوا، ومعنى وقوفهم أن المقابلة انتهت، ولكن الله يظل معك إلى أن تنهى أنت المقابلة، أى عظمة تجعل الإنسان يفخر بأن خالقه المستغنى عنه يدعوه إلى رحابه كل يوم، ولله المثل الأعلى يعطى الداعى المدعو من التحف والأفضال والإكرام ما يناسب منزلته، فهذا يقدم قهوة، وذلك يعطى كذا، وذلك يعطى فاكهة على حسب قدره، إذن فأنت إذا ما دعيت إلى حضرة الله خمس مرات فلله ألطاف وتحية يحييك بها فى بيته، وما دامت التحية على أقدار الداعى وعلى أقدار المحيى، فانظر إلى هديتك، وعلى قدر

ربك يعطيك، ماذا يعطيك؟ العطاء الخفي؛ لأن كل معط يعطى على قدر ذاته وصفاته. أنت تذهب إلى الطبيب فيعطيك الطبيب أمرا ماديا، دواء ماديا؛ لأن الطبيب مادي، وتذهب الصنعة إلى صانعها فى مصنعه، فيجد سلكا دقيقا مقطوعا، أو يجد مسمارا صغيرا مفقودا عطل الآلة، فيصلحها، وبذلك أعطى أمرا ماديا لأنه مادى يعطى من جنس ذاته، ولكن ربك غيب فهو يعطيك من جنس ذاتيته وغيبه، فلا تقل ماذا أخذت؟ لأن عطاءه غيبى، أعطاك الطاقة والشحنة، أعطاك اليقين، كل ذلك من عطاء الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لك، حين يناديك لتكون فى حضرته.

وهذه المسألة تتكرر كل يوم خمس مرات، لتديم ولاءك للحق، فإذا ما ذكرت أن الحق الذى أعلنت ولاءك له كل يوم خمس مرات، وحضرت إلى بيته وأعطاك من فيض غيبه ما أعطاك، إذا قال لك: افعل كذا خارج البيت فلابد أن تفعله؛ لأن فيه استدامة ولاء.

إذن فمشروعية معنى الأركان الإسلامية هى الأساس الذى ينبغى عليه احترام كلمة «افعل ولاتفعل» باستدامة الولاء لله، وحين تخرجك الصلاة بنداء ربك إلى بيته، قد تتعطل بعض حركتك وقتا من الزمن، ولكن لا تنظر إلى المسائل نظرة السذج البسطاء ولكن انظر إلى المسائل نظرة الأذكياء، فالمهم فى الجدوى وفى الحصيلة؛ قد يطلب منك شئ ينقص ما عندك، فالأحمق ينظر إلى ما ينقص، والكيس العاقل ينظر إلى ما يعوضه، ومعنى ذلك أنك مثلا فلاح، وعندك فى بيتك إردب من القمح، وبعد ذلك أرضك تتطلب بذرا يعنى «تقاوى» نصف أردب، فالأحمق يقول: أنا أنقص ما عندى نصف إردب؟ ولكن العاقل يقول: أنا أنقصه اليوم لكى يصبح عشرة أرادب غدا.

إذن فالحازم العاقل لا ينظر إلى نقص عاجل، ولكنه ينظر إلى نماء آجل، أنت آلة تتحرك فى الحياة وربك يناديك، وهو صانع الآلة، فمعنى ذهابك إليه ذهابك إلى صانعك، لتخرج من عنده وقد أمدك بطاقة تعوض عليك الزمن المفقود، تعوضه عليك بأن تكون حركتك مباركة، تعوضه عليك بألا تتحرك بمنهج مضاد لافعل ولاتفعل.

إذن فالعملية الإيمانية التي يريد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يتابع ولاءك بها بركة لبقية الوقت إن عطلت بعض الوقت؛ لذلك يشرح الله ذلك فى قضية القمة حين يقول:

﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾[1] ولم يقل ذروا الصناعة، ذروا التعاليم. بل أتى بكلمة (البيع)، وكلمة (البيع) فيها اختار الله للفظ المؤدى أداء حيا يستمر عطاؤه إلى أن تقوم الساعة.

●●●

(١) سورة الجمعة، من الآية: ٩.

أدب الدعوة إلى الله

إن عرض قضية الإسلام إقناعا وتأييدا يجب أن يبنى على سماحة العرض، ولين القول، وحكمة الموعظة، والجدل الحسن؛ لأن ذلك إن لم يقنع خصمك فسيعطيه الدرس القاضى على أنك إنسان مهذب بمنهج الله، لا تعرض على الناس ما يخرجهم مما ألفوه بأسلوب يكرهونه، فتكون قد جمعت عليهم مشقتين: مشقة إخراجهم عما اعتادوا وألفوه، ومشقة الطريق المؤدى إلى ذلك، من سوء الأدب وعدم الحكمة فى الموعظة، ولذلك كان العربى قديما يقول: النصح ثقيل. لماذا يكون النصح ثقيلا؟ لأنك تخرج المنصوح عما أحب أن يفعله فيستثقل نصحك لأنه لا يحب إلا من يزيد له أمر شهوته، النصح ثقيل فلا ترسله جبلا ولاتجعله جبلا، والحقائق مرة فاستعيروا لها خفة البيان.

ولذلك نجد الأدب العالى فى منهج القرآن، الرسول ﷺ حين يعلمه الله أن يقول لخصومه «قل» أى يا محمد، لمن ؟ لخصومك ﴿ **لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[1] يعنى كل واحد منا محاسب على عمله، فأنتم يا خصومى يعنى يا خصوم الإسلام: لا تسألون عما أجرمنا، فنسب الإجرام لنفسه؛ لأنه هكذا يراه خصومه، ولكنه حين رد الأمر بالنسبة إليهم قال: «ولا نسأل عن» وقياس الكلام نقول: عما تجرمون، لأنكم لا تسألون عما أجرمنا، ونحن لانسأل عن ماذا؟ لابد: عما تجرمون، فيعلم الحق نبيه ﷺ أدب الجدل ويقول: ﴿**وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[1] ولا تأتى سيرة الإجرام، وهذا بالنسبة لمن يتحقق عند الله إجرامهم، ومع ذلك لم يجابههم بالإجرام وأسند لنفسه هو: ﴿قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل﴾ ولم يقل: عما تجرمون، بل قال: عما تعملون.

فانظروا إلى أدب الجدل كيف يسمو بصاحبه إلى منطقة تقرع المجادل وتلذعه

(١) سورة سبأ، من الآية: ٢٥.

بالسياط، وتعلم أن الذى يجادل لا يجادل بشهوة البشر فى الاستعلاء، ولكنه يجادل بمنطق الحق فى السماء.

هكذا يجب أن يكون عرض الإسلام، وهكذا يجب أن نستقبل كل خصومة للإسلام، إلا أن الإسلام يطلب منك أن لا تدع للفتنة بذورا تكبر، بمعنى أنك إذا ما كان خصمك فى الدين أحب أن يعيش مسالما لك وهو حر فى تصوراته وتشخصاته، وهو تارك لمنهج الله الذى آمنت به الأغلبية، أن يسيطر، مادام لا يظاهر علينا، ولا يقاتلنا فى ديننا، ولا يحاول أن يخرجنا من أرضنا، فهم فى حضانة رحمة هذا الدين، وأما إن فكروا تفكيرا غير هذا، فالإسلام يتطلب منا أن نضرب على يدهم من أول الأمر، حتى تكون كلمة الله دائما هى العليا، وستكون دائما كلمة الله هى العليا، لماذا؟ لأنه إن جاء فى ظاهر الأمر فى بعض الأحايين أن أنصار الحق صاروا دون أنصار الباطل، فذلك درس يعلمه الله للبشر، كيف يكون أمر الحياة إذا ما علا الباطل فى الأرض؟ إن لم نلذع بباطل يغلب علينا ويستذلنا فلن نجد الدليل على صحة منهج الله، أما أن يترك الحق أمر الناس إذا قصروا فى أمور دينهم، واستعلى عليهم أصحاب الباطل، فلابد أن يلذع الباطل أصحاب الحق؛ لأنه إن لم يلذع أصحاب الحق فلا فرق بين أن يسيطر حق أو يسيطر باطل.

إذن يتطلب كل واحد منا وهو على ثغرة من ثغرات دينه أن يقف الموقف الذى يؤيد حق إسلامه، لكن بأدب الجدل، وقوة البرهان، ولا يستعدى أحدا على أحد إلا بمنطق الحق، والإسلام حينما نستعرض تاريخه الطويل نجد أنه علا بأمرين:

الأمر الأول: اندفاع المؤمنين به إلى نشره، تلك قوة، وقوة أخرى وهو استغاثة المحكومين بالباطل بمد يدهم إلى الحق ليأخذ بيدهم، ولذلك تجد كثيرا من فتوحات الإسلام كان للمفتوحين فى الإسلام يد فى أن يجتذبوا المسلمين ليخلصوهم مما هم فيه من شر.

إذن فالإسلام انتصر بأمرين: بقوة اندفاع المؤمنين به لنشر كلمة الله، وإقبال المظلومين من الباطل لينصفهم ذلك الدين، ولذلك تجد أن غالبية المسلمين أو

كثـرتهم فى أمم لم يدخلهـا فتح إسـلامى بل أمم أخذت الإسـلام بالقدوة الطيـبة والأسـوة الحسنة، كل الدول التـى توجد فـيهـا غـالبيـة إسلامـيـة لم يدخلها فـتح إسلامى، وهناك شئ آخـر وهو الأمم التى دخلها فـتح إسلامى ظلت فيـها ديانات معادية للإسـلام، فلو كان الإسلام قد جـاء ليكره، ما بقى فى أمة فتـحت بالإسلام من هم على غيـر دين الإسلام، ولكن بقيت فى هذه الأمم ديانات غيـر الإسلام مما يدل على أن الإسلام لم يكره أحدا، ولم يحمل السـيف إنسانا على أن يعتقد ذلك الـدين، مـادام الله قد أيد الـدين بجمـاعة تـؤيد منهج الله، لتنظم حـركة الإنسـان: ﴿**فَـمَن شَـاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَـاءَ فَلْيَكْفُـرْ**﴾(١) مـادام منهج الله فى الوجـود سـيسـيطر، ومادامت حـركة الإنسـان بالعناية الإسلامـية تسـير على مـا شرعـه الحق سبـحانه وتعـالى. وإذا نظرنا إلى أمر الإسـلام، الكلمة نفسها كلمة (إسـلام) جاءت وصفا، وجـاءت علمـا اسما، والشئ إذا كـان وصفا ظل معـه معناه، وإذا كان علمـا يأخذ معناه وأكـثر من معناه، كـيف؟ إذا قرأت كلمة (قـمر) على معـناها، انصرفت إلى الكوكب المضئ الذى يأخـذ أشعـته من الشـمس، ويعكسهـا على الأرض، فيـبقى ويظل معنى مع اللفظ، فإذا نقلتـه وصيرته اسما لواحدة اسمهـا «قمر» أيظل معنى القـمـر موجـودا فى المسمى؟ لا فـقد تكون زنجية وأسـميهـا «قمـر» ويكون شقـيا وأسميه «سعيدا» إذن ما دام الأمر يصير علما فيكون له معنى ثان، إنما تصير وصفا، وفى كلمـة إسلام: الإسـلام وصف أم علم؟ إن كانـت وصفـا يطلق على كل من أسلـم قياده إلى مـسلـم إليه يكون اسمه «مـسلما» أى إنسان يسلم قيـاده لآخر يقال هـذا «مـسلم» وذلك «مسلم إليـه» إذن أسلم لانقـياده لمسلم إليـه، الإنسان عـادة لا يسلـم قياده لمساويه أبدا، ولا لمن هو أقل منه أبدا، بل يسلم قياده دائما لمن هو أقوى منه وعنده القدرة عنه، والحكمة عنه، يسلـم قياده لمن يعلم أنه أعلى بدليل أن الولد الصغـير يسلم قياده لأبيـه، وعندما يبلغ وتصيـر له ذاتية يستقل عن أبيـه فى معظم الأمور.

---

(١) سورة الكهف، من الآية: ٢٩.

إذن فالذى يخـرق قانون الإسـلام هو أن يصبح المسلم إليـه مساويـا أو يصبح دون من أسلم إليـه؛ ولذلك الحق ـ سبحـانه وتعالى ـ لـم يكلف الإنسان إلا بعـد البلوغ، بعد البلوغ يعنى بعد اكتمـال الذاتية ـ لو كلفه قبل أن يبلغ ثم بلغ وظهرت عليه مظاهر الاستعلاء، يقول: لقـد تعاقدت معك على الإيمان قبل أن أبلغ، ولكن فى الإسلام لا يأتى الـتكليف إلا بعد أن تبلغ، حـتى يتحقق الإلزام بمعنـى الكلمة، فإذا كـان الإسلام هو هذا إذن العاقل لا يسلم زمـامه إلا لمن هو أعلى منه، والناس كلهم سـواء إن تميـزت أنت على بشـئ فأنا أتمـيز عـنك بشئ آخـر، إذن فليس من المعقول أن أسلم زمامى إلى مسـاو لى وهو الإنسان، فلما جاءت الأديان من أعلى وتلقى آدم من ربه المنهج وبلغـه لذريته، أو جاء الرسل بالمـنهج، وجدنا شيـئا أعلى منا جميعـا، إذا أسلمت أنا إليه فلا غضاضة، وإذا أسلمت أنت إليه فـلا غضاضة؛ لأنك لا تعتـبر مسلمـا لمساويك، وإنما مسلم لأعلى منك، ولذلك إذا قـرأنا القرآن نجد العبارات فيه عبارات مؤدية.

فهذه قصـة ملكة سبأ أو قصة سليمـان عندما نقرؤها نجد فيها الـعجب الكثير؛ لأن الله ساعـة أن يقص علينا القصص لا يقـصه لنقتل الوقت، ولكـن لكى نلتقط منها العبـرة. العبرة التى تظل دستورا فـى حياتى أنتفع بها، وأول مـسألة أن الله قد سخـر لسليمان الجن والإنس والطـير والريح، كلنا علمنا، ولذلك لـم يسـتطع أحد من البشر أن يقـاومه بقوة لأن عنده قوة ليست عند أحـد، وهنا نتساءل: لماذا أرسل الله تعالى رسـلا غير ملوك، وأرسل ملـكا رسولا؟ حتى يعطى خلقـه درسا فى أن الله إذا أراد أن تستقيم الأمور لما استطاع أحد من خلقه أن يرفع رأسه، فيستطيع أن يأتى برسول ملك، ويسخر له كل شئ، ولا يستطيع إنسان أن يعصاه، ولكن الله لا يريد ذلك، الله تعالى يريدنا طواعية، يريدنا أن نذهـب إليه طواعية. ولو كان الذين يدعـون إليه ضـعافـا؛ لأن معنى ذلك أن الحب هو الذى دفـعنا إلى الإيمان، فيـأتى رسول الله فى أول حياته يتعب تعبا شـديدا ولا يقدر على حماية أصحابه، ويقول لهم: هاجروا من هنا واذهبوا، لماذا؟ لأن قريشا كـان لها السيادة على العرب كلهم ولا يمكن لواحد من العرب أن يرفع رأسه أمـام قريش. لماذا؟ لأنهم يسافرون رحلة

الشتاء ورحلة الصيف، وبعد ذلك هم المسيطرون على الرحلتين، والعرب تهابهم، لماذا؟ لأنه سوف يأتى موسم كل عربى يسافر فيه عند قريش فيصبح مملوكا لهم، فلا يستطيع أحد أن يتعرض لقافلة قريش أبدا، فلابد أن تحتل موقع السيادة، فلو أن محمدا ﷺ بمجرد دعوته نصرته قريش لقالوا: قبيلة ألفت السيادة فتعصبوا لواحد منهم ليسودوا به الدنيا، وحينئذ يفهم أن العصبية لمحمد هى التى جعلت الإيمان بمحمد، كلا، إن الله يريده ضعيفا فى أول الأمر، حتى يكون الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية لمحمد ﷺ .

إن الإسلام بعد ذلك هو إلقاء الزمام من المسلم لمن أسلمت إليه زمامك، والبشر جميعا متساوون، ولا يمكن لإنسان أن يلقى زمامه لإنسان، فإذا جاءت صيحة السماء للناس أن انهضوا إلى رسالتى فقد أصبحنا مسلمين لخالق لنا، هنا لا غضاضة، إن إسلام الإنسان للأعلى منه بالإجماع لا يجعلنى أسلم لك، فأكون ذليلا لك، أو تبيعا. والإسلام حينما يكون وصفا فهو رسالة الرسل جميعا، ولكن رسالة محمد ﷺ امتازت بأنها أخذت الإسلام وصفا، لأنها أسلمت الزمام لله وأخذته اسما علما عليها، ولذلك سماكم المسلمين، وليس وصفكم بالمسلمين بل سماكم المسلمين، وبهذا ميزتنا أننا أخذنا الوصف والاسم وأصبحت «كلمة» ولذلك: الدين عند الله الإسلام، لماذا؟ الإسلام لأنه أصبح وصفا وأصبح علما علينا، وهو بالنسبة للسابقين وصف لهم، ولذلك الله ـ سبحانه وتعالى ـ حكى لنا أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ سمانا مسلمين ولم يصفنا بأننا مسلمون، فكل الديانات موصوفة بأنها مسلمة، ولكن نحن أتباع محمد ﷺ موصوفون بأننا مسلمون، ومسمون أيضا بأننا مسلمون، إذن فهو علم علينا، والإسلام حين يكون للأعلى لا يكون فيه استذلال، والدين يأتى لكى لا يكون هناك خلق يستذل خلقا، جاء ليصبح منهج الحق هو المسيطر؛ ولذلك كنا نسمع فى الريف قديما أن من يقطع الشرع أصبعه لا ينزف دما؛ لأنه ليس أنت الذى قطعت أصبعى ولكنه الشرع الذى قطع أصبعى، ومادام الأمر كذلك لا تكون هناك ذلة أبدا.

إذن حين يكون الحكم من الأعلى فليس هناك غضاضة، وذلك نراه عادة فى الخصومات الفردية فى أى شئ من الأشياء اثنان متشاحنان، وبعد ذلك يريدان الصلح، إياكم أن تظنوا أن بشرا يستطيع الصلح بين بشر، لا يمكن ما لم يكن الطرفان المتنازعان يميلان للصلح، والخروج من شحناء الخصومة، ولكن يعز على أى طرف أن يتقدم أولا، وعندما يتدخل واحد فإنهم يسمون ذلك «دروة» أى يدارى فيها كبرياء المتخاصمين، فيقولون لولا فلان ما كنت أتصالح، إذن فالإسلام للأعلى دروة تدارى فيها غرور البشر، وأظن أن هناك قصة - وإن كانت مضحكة إلا أنها تعطيك الصورة الواضحة - كان هناك رجل تخاصم مع امرأته، وعز على كل طرف أن يتقدم لإزالة الجفوة، هو قد ركب رأسه، وهى أيضا ركبت رأسها ولا فائدة، وكانت الخصومة هو فى غرفته وهى فى غرفتها، ثم قامت لترى ماذا فى الغرفة وأخذت تضع عينيها وأذنيها فى ثقب المفتاح فوجدته رافعا يده وهو يقول يارب تكلمنى. يارب تصالحنى. ثم قال: «ياست زينب» إن صالحتنى لك نذر كذا وكذا. فسمعت الكلمة، ثم ذهبت إلى غرفتها ولبست ثم أخفت وجهها وفتحت الغرفة، وهى تقول: إلى أين تذهبين بى يا أم هاشم!! هذه «دروة» وربنا لكى يحفظ على البشر استعلاءهم ويحفظ على البشر كرامتهم، فاصطنع فى تشريعاته «دروة» لكى يتدارى فيها خلقه، فعلم أنه مثلا قد تنشأ حروب بين جماعات، والحروب تضنى الفريقين، فإذا أضنت الفريقين مَنْ منَ الفريقين يستطيع التقدم للصلح؟ إنه يخاف أن يقال عنه إنه هو الذى رجع، هو الذى خضع، فيقول الله تعالى: لقد جعلت فى الزمن أشهرا حرما أحرم فيها القتال؛ لكى أقول أنا: لو لم يكن شهر رجب، لو لم يكن ذو القعدة وذو الحجة كنت حاربت، إنما الشهر الحرام جاء فماذا أصنع؟ وهذه «دروة» يدارى فيها غرور البشر، ثم يحدد مكانا حراما، فيقول لك: لا تتقاتلوا هنا أبدا، فيقول الناس: لو لم يكن قد جرى منى ودخل الحرم كنت حاربته، إذن الذى شرع لنا التشريع أعطى للغرور البشرى، للاستعلاء حماية، لكى لا يستذل بعضنا بعضا. ولمن هذا الحكم؟ لله ربنا.

قصة ملكة سبأ:

عندما ذهب سليمان وتفقد الطير ـ وكلمة (وتفقد الطير) مع أن هناك مخلوقات كثيرة مسخرة له، إنما تفقد المتحرك الذى له حركة، وهذه هى يقظة الراعى. فقال: مالى لا أرى الهدهد؟ يا للدقة، إذن على كل ولى أن يستعرض من له ولاية عليه، لكى يرى من الذى يتحرك بدون منهج.

﴿**وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ**﴾(١) وانظر إلى الصرامة فى حق التخلف بغير علم﴿**لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ**﴾(٢) ولكن انظر عدالة الحكم ﴿**أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾(٢) صرامة ممتزجة بالعدل، وتلك سمة الحاكم، صرامة وحزم ممتزج بالعدل؛ لأنه إن جاء بسلطان مبين لانتهى الأمر، هذه هى قوة المحكوم حين يدفعه الحق كيف يصرخ بأعلى صوته فى الحاكم، فمادامت المسألة حقا قال له: ﴿**وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ**﴾(٣) أنا أحطت بما لم تحط به، يا قوة الله !! أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين. هذا يدلنا على أن الإنسان إن رأى خيرا لأمته وجماعته فلا ينتظر حتى يأخذ الإذن، يعمل مادام هناك خير يمكن أن تفوت فرصته، وبعد ذلك تستمر القصة لكى تستعلى بنا فى العقيدة، فلا تظن أنت يا صاحب العقل والعقيدة وأنت الذى نقول لك: آمن بالله، بينما ما هو دونك قد آمن بالله، فالذى آذى الهدهد أنه رأى الكفر: ﴿**وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾(٤) كأن الهدهد يعرف من الذى يجب أن يسجد له: ﴿ **أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾(٥) وقد يقول قائل: لماذا الخبء الذى فى السموات والأرض؟ الخبء الذى هو مخبأ؛ لأن هذه أول ما يهم الهدهد، لأن الهدهد لا يأكل من سطح الأرض أبدا، رزقه دائما فيما تحت الأرض، لابد أن ينبش بمنقاره الطويل المخصص للنبش، فيأتى من تحت الأرض

---

(١) سورة النمل، من الآية: ٢٠..

(٢) سورة النمل، من الآية: ٢١.

(٣) سورة النمل، من الآية: ٢٢..

(٤) سورة النمل، من الآية: ٢٤.

(٥) سورة النمل، من الآية: ٢٥.

بالطعام الذى يظهر أثره واضحا عليه، وبعد ذلك قال له سليمان: خذ هذا الكتاب وألقه إليهم، وكأنه وفد من قبل الملك، فقالت بلقيس: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾[1] وهنا عبرة فى القيادات التى تسوس بالرأى، والقيادات التى تحكم بالقوة، هناك رأى وهناك قوة، ولذلك حتى الشاعر العربى قديما قد فطن إلى هذا وقال:

الرأى قبل شجاعة الشجعان ... هو أولا وهى المحل الثانى

فقالت لقومها: أنا ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ، قالوا لها: هذا ليس من اختصاصنا ﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[2] يعنى نحن نحارب وليس لنا فى الرأى السياسى شئ. أنت تقدرين الرأى السياسى، وبعد ذلك تقولين لنا نحارب أو لا نحارب، إذن فأهل القوة وأهل البطش ليس من شأنهم أن يقولوا آراء، إنما أن ينفذوا ما ينتهى إليه أصحاب الآراء، لماذا؟ صاحب القوة والبطش ربما كانت حميته وقوته تدفعه إلى أن يقيس الأمور بمنطق الشدة، ولا يمكن أن تسير الأمور هكذا. إذن:

﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[2]

أوكلوا إليها مهمة الرأى، يعنى أنت التى تقولين، وهى فعلا تحملت الأمر، ورأت رأيا، عندما يعرضه القرآن، والقرآن حين يعرض كلاما، ولا يكر عليه بالبطلان يكون موافقا عليه، ولذلك عندما قالت:

﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾[3] القرآن عقب وقال: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[3] وليس لأن امرأة قالتها فتكون ضدها مادامت قد صادفت الحق، ثم قالت الرأى الذى هو من اختصاصها: سأبعث إليهم بهدية، فإن كانوا يريدون الخير ويريدون المال، ويريدون الجاه، سوف يقتنعون بها، وإلا كانوا يريدون بالفعل منهجا ودينا ـ فبعثت هدية، وقد كان سليمان كما ظنت، فقال:

---

(١) سورة النمل، من الآية: ٣٢. . (٢) سورة النمل، من الآية: ٣٣.

(٣) سورة النمل، من الآية: ٣٤.

﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾(١) ـ وهنا عرفت أن سليمان ليس ممن يقبلون على الجاه، ولكن صاحب منهج، قالت لابد أن نذهب ونؤمن به، ونسلم. وانظر هنا إلى ملوكية الإيمان واستعلاء العقيدة، ماذا ستقول؟ هل تقول: أسلمت لسليمان؟ لا أنا ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾(٢) هذه هى العظمة، عظمة الإيمان، أنا لم أسلم لسليمان، ولكن أنا أسلمت مع سليمان، لأنه هو مسلم أيضا، لمن؟ لله رب العالمين، إذن فعظمة الإسلام أنك لا تسلم لمساويك وإنما تسلم لأعلى منك بإقرار الجميع، ولذلك كانت الدقة فى ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾(٣) يعنى لا تظن أنى أسلمت لك، فأنت أصلا مسلم، وأنا أسلمت معك، ونحن الاثنان مسلمان لله الواحد القهار، هذه هى عظمة الإسلام.

ولذلك ساعة يعرض لنا القرآن بعض النماذج يقول مثلا فى قصة موسى مع فرعون والسحرة، وكان الله قد أجرى تدريبا لموسى قبل أن يلتقى بفرعون مثل تدريبه لآدم فى الجنة، فلما ذهب عند النار قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾(٤) وهنا نقول: هل عندما سأله ربه ألم يكن الله يعرف ما فى يده؟ بلى، ولكنه سؤال الإيناس لكى يقطع المهابة،كما تذهب أنت إلى صديقك فتجد ابنه الصغير معه برتقالة إنما هذا يسمى إيناسا، كان يكفى فى الإيناس أن يقول «عصا» إنما لأنه لا يريد أن يقطع أمد الإيناس بالله إنما يريد أن يطول أمد الإيناس بالله، فقال: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾(٤) وبعد ذلك وجد نفسه قد أطال فقال: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾(٥) فلو قال عصا فقط فكأنه لا رغبة عنده فى إطالة الإيناس بالله، فأطال فى الجواب إطالة لزمن الإيناس فقال تعالى لموسى: هذا مدى علمك بالعصا وهذه هى رسالة العصا

---

(١) سورة النمل، الآيتان: ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) سورة النمل، من الآية: ٤٤.

(٣) سورة النمل، من الآية: ٤٤.

(٤) سورة طه، الآيتان: ١٧، ١٨.

(٥) سورة طه، من الآية: ١٨

عندك، إنما العصـا لها رسالة أخـرى عندى أنا، قال له: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾(١) فـيخـاف موسى. ويقـول ربه: ﴿لا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ﴾(٢) فـإذا لم يكن مـوسى قد خـاف لقلنا: إن هذا من نوع الـسحـر، وهناك فارق بـين السحر الـذى كان عند قـوم فرعـون، وما جاء به مـوسى، إن ما جـاء به موسـى ليس سحـرا فلا نقـول إنه ساحـر، لماذا؟ « فأوجس فى نفـسه خـيفـة» هذه الكلمـات تعطينى المعنى؛ لأنه مادام قـد أوجس فى نفسـه خيفـة تنقلب الآية؛ لأن الساحـر عندما يرمى العصـا لا يراها حية، إنما يراها الغـير حية، وهو يراها عـصا ـ فلما رآها موسى حية كأن الحقيقـة تغيرت، فكأن فارق السحر من قوم فرعون أنهم يسحـرون أعين الناس والحقـيقة هى هـى ، ولكن معجـزة موسى تغـيير للحـقيـقة بدليل: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً ﴾(٣) وكانت هذه التجربة لكى يباشرها عند فرعون وقلبه ثابت، أن العـصا ستـنقلب حية، وإلا فـإن الخوف كان يهـزمه أمام فـرعون ، فكانت التجربة الأولى له أمام ربه.

●●●

---

(١) سورة طه، الآيتان : ١٩ ، ٢٠.

(٢) سورة طه، من الآية: ٢١

(٣) سورة طه، من الآية: ٦٧

أهوال القيامة

الكافرون بالبعث ولماذا كفروا؟

اختلف الكافرون فى إنكار البعث، فمنهم من ينكره إنكارا جازما، وهؤلاء صورهم القرآن بقوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾(١). ومنهم من يشك ولا يجزم بالإنكار، وهم المرتابون ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾(٢). ومنهم من يعلق الإيمان بالبعث على معرفة موعده ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٣).

والأدلة على قياس الناس للحساب يوم البعث قائمة، ولكن خطأ الكافرين بالبعث إنما جاء من ناحية منهج التفكير، وذلك أنهم أرادوا أن يناقشوا الجزئيات العقدية، ومناقشة الجزئيات العقدية لا يمكن أن تأتى من عاقل أبدا، إلا أن يناقش القمة العقدية أولا.

فنحن المؤمنين بالبعث لم نؤمن باليوم الآخر أولا، وبعد ذلك كان إيماننا به سببا فى إيماننا بالله، وإنما آمنا أولا، وحين آمنا بالله، وقال الله لنا: إن هناك يوما آخرَ، صدقنا ماقال الله. إذن فالمناقشة يجب ألا تكون فى اليوم الآخر وقوفا واستبعادا واستغرابا وتعجبا، وكان يجب أن تكون المناقشة فى القمة العقدية... فى الإيمان. تؤمنون بالله أولا تؤمنون به، فإن آمنتم فالتزموا، وإن لم تؤمنوا فما الذى يضير إن لم تؤمنوا بما يقوله الله؟!.

إذن فالقمة الإيمانية أولا هى: أن نؤمن بالله، فإننا لم نؤمن بالملائكة والكتب والرسل والقضاء والقدر خيره وشره واليوم الآخر إلا لأن الله تعالى قال ذلك، لأنها أمور غيبية، والأمور الغيبية التى لا تقع تحت الحس لا يمكن أن نصدقها إلا إذا

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان : ٣٥، ٣٦.

(٢) سورة إبراهيم، من الآية : ٩.

(٣) سورة يس الآية : ٤٨، وسورة الملك : ٢٥ وغيرهما.

قال بها من نثق بصدقه، فإذا توقفت عقولنا فى الكيـفية نقول: لا، معرفة الكيفية لا تعنى صدق وقوع الحدث أو عدم صدق وقوعه. وقوع الحدث شئ، وكيفية وقوعه شئ آخر.

ومثال ذلك ما قـاله سيدنا إبراهيم لربه: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1] جـاء العلمـاء فقـالوا: كـيف يوجـد هذا التناقض الظاهرى فى القـرآن؟ إن الله قال لإبراهيم حين قـال له: (أرنى كيف تحـيى الموتى) قال له: (أو لم تؤمـن). فأجاب إبراهيم قـائلا: (بلى) ومعنى (بلى) آمنـت. ومعنى آمنت: اطمأن قلبى إلى عـقيدتى بحيث لا تطفو مـرة أخرى إلى الذهن لتناقش من جـديد، فإن طفت العـقيـدة إلى الذهن لتناقش من جـديد لا يكون ذلك إيمانا، ولا تكون عقيدة، بل تبقى فكرة لا تزال موضع بحث.

فإذا كان إبراهيم قد آمن واطمأن قلبه فلماذا يقول: (ولكن ليطمئن قلبى). كأن اطمئنان القلب كان مفـقودا فهو يطلبه، ومادام اطمئنان القلب غـير موجود فكيف يقـول: بلى. يعنى آمنت. مـا كان يـصح لإبراهيم أن يقـول: بلى، يعنى آمنت؛ لأن الاطمئنان مازال غير موجود.

نقـول: لا. هذا التناقض الظـاهرى الذى ظننتـمـوه فى الآية إنما جـاء لكم من إهمال لفظ فى الآية. وإهمـال لفظ أو حرف يغير مجـرى الفهـم فى الآية. إبراهيم لم يسأل ربه ليقول له: أتحيى الموتى؟ وإنما قال له: (كيف تحيى الموتى) فالسؤال عن الكيفـية لاعن أصل وقـوع الحدث. فهـو مؤمن بأن الله يحـيى الموتى، هذه قضـية مسلمة عند إبراهيم، ولكن المسئول عنه أنه يريد أن يعرف الكيفية. فقوله: بلى يعنى أنا آمنت بأنك تحيى الموتى، وهذا هو المطلوب التكليفى من العبد المكلف: أن يؤمن بأن الله يحيى الموتى. أما معرفة الكيفية فهـذا أمر لا يضر فى العقيدة، سواء عرفتها أو لم تعرفها؛ لأن انتفاعك بالأشياء لا يعنى ضرورة فهم كيفياتها.

فـالبـدوى أو الفـلاح ينتفع بالكهـرباء فى بيتـه، لكنه لا يعـرف كـيف تأتى

---

(١) سورة البقرة، من الآية : ٢٦٠.

الكهرباء. إذن فهو ينتفع بالشئ، ولا يعرف كيفيته، ومعرفة كيفيته لا تغير انتفاعه وعدم انتفاعه، هو ينتفع به كالفاهم لكيفية توليد الكهرباء تماما.

كذلك الله قادر على أن يحيى الموتى، وأما كونك تريد معرفة الكيفية فهذه صنعة الإله، ولذلك فقد لفت الله تعالى إبراهيم لفتة عقدية، وكأنه قال له: إن من عظمتى أن أنقل إلى الغير بعض قدرتى ليفعل، كما يحمل القوى عن العاجز حملا لا يستطيع العاجز حمله، ولهذا كان جواب الحق لإبراهيم: ﴿**فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا**﴾(١) لم يقل: أنا أدعوها لك لتأتيك، بل جعله هو يدعوها فتأتيه، إذن أجاب الله بالكيفية على أوسع نطاق من الكرم التعليمى.

ولهذا فالدين يبحث أولا من قمته الإيمانية، هو نقاش موضوع الإيمان بالله بمنتهى الحرية العقلية، وبعد ذلك إذا أقتنعت بالإيمان بالله وأنت فى كامل حريتك العقلية فلابد أن تثق بإخبار الله، فإن وثقت بالخبر من الله وجب الالتزام به. أما أن تناقش أمرا جزئيا وتترك القمة فهذا خطأ فى منهج الفكر الدينى.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ**﴾(٢) أنت صادق عندهم ﴿**وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾(٢) فقد قالوا فى القرآن: سحر، وشعر، وكهانة، كل ذلك قالوه. وبعد ذلك تورطوا فقالوا: ﴿ **لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾(٣) فكأن القرآن أصبح قرآنا عندهم، لكن الذى أتعبهم أن يجئ على لسان هذا النبى بالذات. وتورطوا تورطا آخر يدل على خطأ المنهج فى نقاش المسائل الدينية فقالوا: ﴿**إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا**﴾(٤) إذن فقد أقروا بأن ما جاء به رسول الله هو الهدى. أى أنه رسول الله جاءهم بالهدى، لكنهم خافوا إن هم اتبعوا الهدى أن يتخطفوا من أرضهم، فرد الله عليهم

(١) سورة البقرة. من الآية : ٢٦٠.

(٢) سورة الأنعام، من الآية : ٣٣.

(٣) سورة الزخرف، من الآية : ٣١.

(٤) سورة القصص، من الآية : ٥٧

بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] إذا كنتم وأنتم كافرون به مكنا لكم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شئ، فهل إذا آمنتم به يتخلى عنكم؟

فلو أنهم بحثوا فى القمة، واطمأنوا إليها، لما اضطربوا، ولما شكوا، ولما أنكروا ولما قالوا عن يوم البعث: إنا لفى شك. ولما قالوا: متى هذا الوعد؟ ولما قالوا: أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون؟ ولما تساءلوا فيما بينهم أو فيما بينهم وبين رسول الله عن النبأ العظيم ﴿الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾[2]

كان من المنطقى ألا يبحثوا فى يوم البعث إنكارا، وإنما كان يجب أن يبحثوا فى القمة، وبعد ذلك إذا اطمأنوا إلى القمة يوثقون الخبر. أقال الله ذلك أو لم يقل؟ وعلى هذه الوتيرة تجد أفكار الكافرين المنكرين تبدأ من الجزئيات، وهو منهج خاطئ.

●●●

(١) سورة القصص، من الآية ٥٧.

(٢) سورة النبأ، الآية : ٣.

أسماء القيامة
بين اللغة والاصطلاح

سمى الله تعالى يوم القيامة بأسماء كثيرة، منها: يوم الدين، ويوم البعث، ويوم الفصل، والقارعة، والحاقة، والغاشية، والصاخة، والنبأ العظيم، وغير ذلك من الأسماء.

وطريقة القرآن فى الحديث عن القيامة وأسمائها تعنى أن الإنسان لا يمكن أن يدرك معانيها الحقيقية أبدا، فهو سبحانه يقول: ﴿**الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ**﴾[1] ويقول: ﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾[2] ويقول: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾[3] ويقول: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾[4] وعلى هذا المنوال يتحدث القرآن عن القيامة بأسلوب الاستفهام الدال على إبهام المعنى على القارئ أو السامع، وعلى تهويله وتعظيم شأنه كما سبق فى الآيات: (وما أدراك). ومعنى هذا: أن معانى القيامة مبهمة على السامع والقارئ تحتاج إلى سؤال لا يدرى الإجابة عنه إلا الله وحده.

وكيف يكون هذا الإبهام والجهل بالمعنى من الإنسان والقرآن عربى نزل بلغة العرب؟ والعرب يعلمون دلالة ألفاظ لغتهم على معانيها؟ ما دامت أسماء القيامة من ألفاظ اللغة فقد كان من المفروض أن نفهم معناها؛ لأن هذا أساس التخاطب بأى لغة، فكيف يأتى الإبهام على لفظ تواضع الناس على أنه موجود فى لغتهم،

---

(١) سورة الحاقة، الآيات : ١ ـ ٣.

(٢) سورة القارعة، الآيات : ١ ـ ٣.

(٣) سورة المرسلات، الآيات : ١٢ ـ ١٤.

(٤) سورة الانفطار، الآيات : ١٥ ـ ١٨.

ويتفـاهمون به؟ كأن الحق تعالى يريد أن يدلنا عـلى معنى، هذا المعنى هو أن هناك فرقـا بين معنى الألفـاظ فى اللغة، وبين المـعنى الاصطلاحى المراد من ذلك اللفظ. لماذا؟

لأن اللغة ألفاظ يعبر بها الناس عن أغراضهـم، فلها معانيها القوية، بحيث إذا أطلقت فهم المعنى، لكن قد يأخذ الناس لفظا من الألفاظ من دلالته اللغوية ليعبروا به عن دلالة اصطلاحية، فبعد أن كان يعبـر عن معناه اللغوى أصبح يعبر عن معناه الاصطلاحى الجديد. مـثلا عندنا علم النحو، قـبل أن يوجد علم النحو كـان معنى كلمة النحو هو: القصد، تقول. سـرت نحو كذا. أى. قصدت كذا. ولكن العلماء عندما وضعـوا القواعد أخذوا هذه الكلمـة من اللغة، استعاروهـا ووضعوها لمعنى جـديد، بحـيث إذا أطلقت هذه الكلمـة عند أهـل علم النحـو انصـرفت إلى علم قواعد لغة، إذن فكأن المعنى الاصطلاحى يأخذ المعنى اللغوى ويضعه لمعنى جديد. ومثـلا كلمة (الحج) لها معـنى فى اللغة: هو القصـد إلى شئ عظيم. ولكن الشرع الإسلامـى أخذ كلمـة الحج من مدلول اللغـة، وخصـها بعـمل خاص، بحـيث إذا أطلقـت فى الشـرع لاتدل على المعنـى اللغـوى الأول، وإنما تدل على مـعـنى اصطلاحى جديد هو القـصد إلى بيت الله فى شهـر معلوم. إذن فقـد تحدد العظيم وأصبح هو الكعبة وحدها.

وأسماء الـقيامة الدالة على مـعانيها الحـقيقيـة كالحاقة والقارعـة هى الأخرى نقلت من معناها اللغـوى إلى معنى غيبى؛ لأن القيامة غـيب، والغيب لا يمكن أن يضع له الخلق ألفـاظا من عندهم؛ لأن وضع اللفـظ للمعنى إنما يـأتى بعد اتضـاح المعنى فى الذهن، ومادامت الـقيامة غـيبا فلا يمكـن أن تتضح فى الذهن، إذن ليس عندنا ألفـاظ تؤدى هذه المعـانى الغـيبـية، لكـن الحق يريد أن يخاطـبنا، فبـأى شئ يخاطبنا مادامـت المسائل الغيبيـة لم تطرأ على بالنا لنضع لها فى لغتنا ألفـاظا تعبر عنها؟ فـإذا أراد الحق سبحـانه أن يعبـر عن هذه المعانى الغيـبية وعـبر عنهـا بألفاظ تؤدى معناها الحقيقى فلا يمكن أن نفهـم شيئاً؛ لأن الألفاظ التى تؤدى معنى الغيب على الحقيقة غير موجودة فى لغتنا، لأن هذه المعانى غير موجودة فى أذهاننا.

إذن لابد أن يخاطبنا الحق باللغة التى نعرفها، ولكن ينقل هذه الألفاظ من معانيها اللغوية إلى معان تناسب معنى الغيب غير الموجود فى أذهاننا، ليقربها إلى أفهامنا، لا لتعرف حقيقتها. وهذا شأن كل معنى غيبى فى القرآن أو السنة، إذن فقد نقلت ألفاظ القيامة كالحاقة والغاشية والقارعة من معانيها العقدية إلى معنى آخر هو يوم الهول والفزع الأكبر الذى لا يستطيع العقل تصوره ولا إدراكه ولا الإحاطة بما يحدث فيه.

كنا تعرضنا للزمان والمكان بالنسبة للإنسان، وقلنا: إن الحياة تفاعل بين الإنسان والزمان والمكان. وقلنا: إن الزمن يحجب الإنسان عن الماضى، ويحجب الإنسان عن المستقبل، والمكان هو الذى يحجب الإنسان عن الحاضر - يعنى الآن - فى مكة تحدث أحداث، الذى جعلنا لا نعرفها وهى تحدث الآن هو حاجز المكان والذى جعلنى أخمن ما حدث فى هذا المكان الذى نجلس فيه مثلا من سنة أو سنتين أو عشر سنوات هو حاجز الزمان. والذى يجعلنى أجهل ما يحدث فى هذا المكان بعينه بعد سنة أو سنتين أو أكثر هو حاجز الزمان أيضاً.

إذن فحاجز الزمان يحجز عنى الماضى والمستقبل، وحاجز المكان يحجز عنى الحاضر. هذه الحواجز بالنسبة لعلم الإنسان المحدود الذى تقوم الحواجز بينه وبين ما يريد أن يعلمه، لكن بالنسبة للحق - سبحانه وتعالى - فالزمان والمكان من خلقه، وعلمه، وصفته قديمة أزلية، فعلمه موجود فى الزمان وقبل أن يوجد الزمان وقبل أن يوجد المكان، فعلمه ذاتى، وما دام علمه ذاتيا والزمان والمكان من خلقه فلا يمكن أبداً أن يتأثر الذات السابق للزمان والمكان باللاحق وهو الزمان والمكان.

فحين يقول الحق: وما أدراك ما الحاقة؟ وما أدراك ما يوم الدين؟ وما أدراك ما القارعة؟ فمعنى هذا: أن حاجز الزمان يحول بينك أيها الإنسان وبين إدراك معناها؛ لأن القيامة وأهوالها أمور مستقبلة، وليس عند الإنسان أشياء تجعله يفهم ما سيحدث فى المستقبل، لكن الله تعالى الذى استوى عنده الزمان فلا حاضر ولا ماضى ولا مستقبل، هو الذى يستطيع أن يخبرك خبر القيامة فقط.

إذن فقوله تعالى: ما أدراك. معناه: لا أحد يدريك من أمر هذه المعانى شيئا. ولا يدريك إلا من لا يحجبه الزمان ولا المكان، ومن هنا فقد وصف الله تعالى ما سيحدث يوم القيامة بما يقربه من أذهاننا، لا بالحقيقة؛ لأن الحقيقة لا تستطيع أن تدركها كما قلنا.

●●●

أهوال البعث

يوم القيامه هو يوم الدين، والله سبحانه هو ملك يوم الدين. ولهذا قال الله تعالى عن يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١)

أى أن الملك له ـ سبحانه وتعالى ـ وحده، والتصرف له وحده؛ لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذه الدنيا غيب وراءه أسبابه الظاهرة، ولكن الآخرة لا أسباب فيها، إذن فهو وحده المباشر للعمل دون أسباب. ونحن نتناول الأشياء بأسبابها، ولكن الأسباب ستظل يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾(٢) أى بعد أن كان هناك مشاهد سببية يختفى وراءها القيوم ـ سبحانه وتعالى ـ أصبح يوم القيامة لا يوجد إلا هو وحده دون أسباب.

ولا شئ يحجب القلب عن عظمة القيام لرب العالمين إلا غفلة الإنسان عن شريعة الله حتى ترين الذنوب على قلبه فتحجبه عن صفاء الإدراك. فالقلب بفطرته الصافية النقيه السليمة يمكن أن يهتدى إلى منهج الحق وحده، والذى يحجب القلب عن فطرته هو أثر البيئة، وأثر الغفلة، ويأتى الإنسان أمام شهوة من الشهوات فيغفل عن بعض المنهج، وبعد ذلك يأتى مرة أخرى فيتبلد القلب وينحجب عن إدراك المراد من الوقوف والقيام لرب العالمين، وعلى سبيل التهديد ـ دون انفعال ـ يقول الله تعالى منبهاً هؤلاء الغافلين: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً﴾(٣) فالذين يقولون: (متى هذا الوعد) يريدون أن ينفعل الله تعالى لاستعجالهم فيعجل لهم اليوم عن وقته الذى حدده. والله تعالى لا ينفعل لذلك؛ لأن الانفعال تغير،

(١) سورة المطففين، الآية : ٦.

(٢) سورة إبراهيم، من الآية : ٤٨.

(٣) سورة النبأ، الآية : ١٧.

والحق لا يتغير. وفي الوقت المحدد سيكون يوم الفصل بين الحق والباطل، وأول هول يحدث هو النفخ في الصور وقيام الناس من قبورهم ليوم الفصل، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾(١) ومع قيام الناس على هذه الصورة ويصحب هذا المشهد انقلاب هائل في السماء والأرض على السواء. قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾(٢) لأن الأرض والسماء الموجودتين هما سماء وأرض معاش، وهناك أرض وسماء معاد، والفرق بين أرض وسماء المعاش وأرض وسماء المعاد: أن أرض المعاش فيها ادخار الأسباب، وعالم العلل، وعالم المعلولات، ولكن في الآخرة لا أسباب ولا علل ولا معلولات، إنما بمجرد أن يخطر الشئ ببالك تعيش بقدرة السبب في (كن) إذن دنيا العناصر والمطر النازل من السماء، والحرارة التي تبخر الماء إلى آخر ما في الدنيا من الأسباب لالزوم لها في الآخرة؛ لأنه يوم فيه ﴿**تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ**﴾(٢) فلابد أن يحصل للسماء والأرض في ذلك اليوم انقلاب رهيب يتناسب مع عظمها واتساعها، فالسماء تمور وتنفطر وتنشق، ويحدث فيها كل ما يؤدى إلى زوالها ودمارها، لتأتى السماء الجديدة والأرض الجديدة.

وقد عبر القرآن عن كل ما يحدث في السماء والأرض من ظواهر الدمار والفناء فقال في شأن السماء: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾(٣) ومعنى أن السماء محبوكة الآن وليس فيها فتحات، قال تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ**﴾(٤). ﴿**فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾(٥) أي شقوق وفتوح.

---

(١) سورة النبأ، الآية : ١٨.

(٢) سورة إبراهيم، الآية : ٤٨.

(٣) سورة النبأ، الآية : ١٩.

(٤) سورة الذاريات، الآية : ٧.

(٥) سورة الملك ، الآيتان : ٣ ، ٤.

وفى موضع أخر يقول الله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾(1). وفى سورة الطور يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾(2). ثم يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾(3) وهو الزيت الذى يغلى، فالشمس تتكور وتتغير عن هيئتها، والنجوم تنكدر ويخبو ضوؤها، ثم تموج السماء، ثم تنشق السماء وتموج وتنصهر.

وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾(4). وفى أخرى يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾(5). فالسماء تنشق، وتنفطر، وتمور، هذا ما يجب أن تؤمن به، أما كيف تنشق وكيف تنفطر وكيف تمور، فهذا ليس مهما أن تعرفه، الذى يجب أن تعرفه أن السماء ستخرج عما ألفناه فيها، وتنتهى إلى أمر لم نعهده ، وتخرج عن رتابتها، ويخرج الكون كله عن رتابته.

والسماء وكل مظاهر الكون مجبور فى هذا اليوم على ما سيحدث، والله تعالى يقول فى ذلك عن السماء: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾(4) أذنت: يعنى استحقت، والأذن: هى آلة الأستماع، والاستماع نوعان. تستمع وأنت حر فى أن تطيع، وتستمع وليس لك خيار فى ألا تطيع، فالمستمع قسمان: قسم له خيار يقول: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾(6) وقسم ليس له خيار يقول: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(7) والكلام هنا عن السماء، فأذنت يعنى استحقت. قال الشاعر:

هم إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا

يعنى استمعوا. والسماع هنا ممن لا يستطيع أن يعصى، فالمعنى أن السماء انقادت، وبمجرد ما سمعت فليس لها خيار، وحق لها ذلك، لماذا؟ لأنها استحقت ممن لا تملك معه خيارا، ومن القادر على إنفاذ ما يراد منها، وعلى هذا فمعنى

---

(1) سورة التكوير، الايتان : ١، ٢
(2) سورة الطور، الآية : ٩.
(3) سورة المعارج، الآية : ٨.
(4) سورة الانشقاق ، الآيتان : ٢.
(5) سورة الفرقان، من الآية : ٢٥.
(6) سورة البقرة. من الآية : ٩٣.
(7) سورة فصلت، من الآية : ١١.

(أذنت) انقادت على الفور؛ لأنها استحقت من ربها، وما دام الاستماع من السماء، والسماء لاخيار لها فى أى أمر، بل هى مسخرة مجبورة مقهورة على تنفيذ ما يراد منها، فمجرد السماع كاف، فالمعنى أن السماء تنقاد لمراد الله، وحق لها ذلك، لأنها ليس لها خيار مع خالقها، بل هى مخلوقة على هيئة الانصياع والامتثال.

وثانى المظاهر ما يحدث فى الأرض، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الأنشقاق: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾(١) والعرب عندهم عبارة كانوا يقولونها هي: مددت الأديم. ساعة يكشطون الجلد عن الذبيحة يتركونه لكى ينتفعوا به، فيدبغونه ليكون مصلى أو فراشا مثلا، ولما كانوا يدبغونه على الطريقة البدائية كانوا يتركونه فى الشمس فيتقلص وتحصل فيه (كرمشة) يعنى: نتوء، وأنت حينما تجئ بشئ مبسوط واسع وتكرمشه تقلل حيزه وحجمه على الأرض، فإذا فردت الكرمشة يمتد ثانياً؛ لأن الكرمشة كانت قد أحدثت ارتفاعا وانخفاضاً، فلما يمتد يتسع وينبسط. كأن الحق تعالى يقول: إن الأرض يوم القيامة ستمتد، والنتوءات والقمم العالية ستنبسط، وقد شرح القرآن الكريم هذا المعنى فى آية أخرى فقال تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾(٢).

وتكون حينئذ مدت واتسعت لكى تسع المحشر كله، لأنها ستسع الناس وقوفا، وليسوا وقوفا لضيق المكان، بل المقصود أننا نكون واقفين لا نستريح ولا نجلس إلى أن يجئ دورنا.

وتلقى الأرض كل ما فى باطنها من الموتى، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾(٣) كما تلقى كل ما فى باطنها من الكنوز والدفائن والأرزاق التى كانت أسباباً للحياة بعد انقضاء عالم الأسباب، وقد شمل الله تعالى كل ذلك بالبيان فى قوله: ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾(٤).

---

(١) سورة الانشقاق، الآيتان : ٣، ٤.

(٢) سورة طه، الآيتان : ١٠٦، ١٠٧.

(٣) سورة الانفطار، الآية : ٤.

(٤) سورة الانشقاق، الآية : ٤.

وثالث الأهوال ما يحدث فى الجبال، ومسألة الجبال هذه أخذت حظاً واسعاً فى القرآن، فقد وردت فيها تسع وعشرون آية، منها إحدى عشرة آية تتعلق بأحوال الجبال يوم القيامة.

وأجمع الآيات فى وصف ما يحدث للجبال يوم القيامة قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[1] فالجبال وهى أثبت شئ يراه الإنسان على الأرض، يراها راسخة يشبه بها كل ثابت وراسخ، فيقول: راسخ كالطود. والسراب: الشئ الذى تتوهمه شيئاً وليس بشئ. يعنى أصبحت هباء، ولم يعد لها وجود.

وإذا تتبعنا عملية تسيير الجبال فى القرآن الكريم وجدنا الحق تعالى يقول فى سورة التكوير: ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾[2] وفى سورة الكهف يقول: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ﴾[3] وفى سورة الطور: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾[4] وفى سورة النبأ: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[5] فكلمة تسيير الجبال جاءت فى أربع سور، إلا أنه فى السور الثلاث لم تتعرض إلى ماذا تصير إليه الجبال بعد التسيير، لكن فى سورة النبأ ذكر نهاية التسيير بقوله: ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ فكأن نتيجة التسيير أنها تصير سرابا. إذن هناك عمليتان: تتحرك الجبال من أماكنها، ثم تصير سرابا.

وهل تسيير الجبال هو عين نسفها الذى جاء فى بعض الآيات كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾[6].

أيضا الجبال تعرض لها القرآن من حيث النسف. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾[7] كثيبا يعنى: رملا، مهيلا: مُنْهالاً بعد ما كان متماسكا. الرمل غير المتماسك يبقى فى مكانه أم لا؟ نعم يبقى.

---

(١) سورة النبأ، الآية : ٢٠

(٢) سورة التكوير، الآيتان : ٢، ٣.

(٣) سورة الكهف، من الآية : ٤٧.

(٤) سورة الطور، الآيتان : ٩، ١٠.

(٥) سورة النبأ، الآية : ٢٠.

(٦) سورة طه، الآيتان : ١٠٥، ١٠٦.

(٧) سورة المزمل، الآية : ١٤.

إذن هي ليست سرابا في هذه الآية؛ لأن السراب معناه: شئ غير موجود. لكن قوله تعالى: ﴿كثيبا مهيلا﴾ يدل على التفكك والتفتت، فالرمال لاتعطى العملية الأخيرة. هذا ما في سورة المزمل.

وفى سورة المرسلات: ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾(١) إذن فقد تعرضت الجبال للنسف. وفى سورة الواقعة: ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا ④ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ⑤ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴾(٢) يعنى تفتتت الجبال.

إذن هناك نسف، وهناك تسيير، والتسيير جاء فى سورة النبأ مقترنا بالنتيجة. وهى أنها بعد التسيير تصير سرابا. لكن النسف معناه أنها تفتتت. هذه هى عملية النسف. فالمعنى إذن أن النسف هو التسيير، أو أن النسف لبعض الجبال والتسيير لبعضها الآخر، وذلك لاختلاف طبيعة الجبال، واختلاف طبائع الجبال يجعل الحالة التى تؤول إليها لتصير إلى عدم تأخذ صورتين: صورة تسيير. وهذا قد ذكرناه. وصورة نسف.

وحديث القرآن عن النسف الحادث للجبال كما فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ⑧ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾(٣) ومرة أخرى يقول: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾(٤) والعهن هو الصوف الملون، والمنفوش يعنى المندوف.

لكن هل الجبال حين تبقى كثيبا مهيلا: فهل تماسك الرمل مثل تماسك الصوف؟ فالجبال إذن ستتعرض لعمليتين اثنتين: تسير فتصير سرابا، وبعد ذلك نسف. وبعد ذلك عملية النسف ستجعلها كثيبا مهيلا. ولابد لها من عمليات تزوية أخرى، لأنها لو ظلت كثيبا مهيلا لما تحقق مدها وبسطها. إذن تصير كالعهن المنفوش، ثم تصير سرابا.

(١) سورة المرسلات، الآية: ١٠.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٤ ـ ٦.

(٣) سورة المعارج، الآيتان: ٨ ، ٩.

(٤) سورة القارعة، الآية: ٥.

والكل إلى زوال؛ لأنه لم يعد لها مهمة، لأننا فى الآخرة - كما قلنا - لن نعيش بالأسباب، ولا بالعلل، ولا بالمعلولات، ولا بالمقدمات والنتائج، ليس لنا مجهود أبدا، سنعيش بآثار قوله تعالى: (كن) من الحق - سبحانه وتعالى - مباشرة دون أى سبب من الأسباب.

والخلاصة أن القيامة يوم يلف الإنسان من جميع نواحيه بالدواهى العظام. وقد عبر الله تعالى عن هذا المعنى بقوله: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ**﴾(1). استفهام دال على أنها أمر عظيم جدا يجب أن ينتبه له الإنسان؛ لأن مادة الغاشية تدل على الداهية العظمى التى تغمر الإنسان من جميع نواحيه ، كما قال تعالى: ﴿**فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ**﴾(2).

●●●

(1) سورة الغاشية، الآية: 1.

(2) سورة طه، الآية : 78.

الناس ... والحساب

صور القرآن الكريم فزع الناس يوم القيامة فى آيات كثيرة من القرآن كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ ﴾(١).

وقوله: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) ﴾(٢).

وقوله: ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾(٣).

ولكن التصوير الذى يدع الخيال يذهب بالإنسان كل مذهب هو قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤)﴾(٤).

الناس مفردها إنسان. الناس الذين هم أعظم جنس فى الوجود يمثلهم الله فى ذلك اليوم بأتفه شئ فى الوجود وهو الشئ الذى يتطاير حول الضوء، عندما تضئ مصباحا فى خلاء تجد أشياء دقيقة تتهافت على المصباح، ويمكن أن تلتصق وتموت. هذا هو الفراش. الفراش المبثوث: يعنى المنتشر، تجد فيه اضطرابا وحركة على غير هدى، فذلك هو ما يحدث للإنسان المتوازن الذى هو سيد هذه الأجناس، يصبح كأتفه شئ فى الوجود.

الناس الذين هم أرقى الأجناس، الذين يتصرفون فى الجماد والنبات والحيوان، ولهم قدرات علمية وسيطرة وغرور بإمكانياتهم يصبحون كالفراش المنتشر، فراش ، يعنى شئ تافه، وفيه اضطراب على غير هدى، لاشئ يضبط حركته، ومادام فيه اضطراب، وهو يطير على غير هدى، فلابد أن يكون هناك هول، وهذا الهول هو الذى أفقده كل شيء .

---

(١) سورة الحج، من الآية : ٢.

(٢) سورة عبس، الآيتان : ٣٤ ، ٣٥.

(٣) سورة إبراهيم، الآية : ٤٣.

(٤) سورة القارعة، الآية : ٤.

وأيضا يدلنا هذا التعبير على الاختلاط، ليس كل قوم لهم مكان خاص يقفون فيه، ولا لكل أمة حاجز يحجزها عن غيرها من الأمم، ولا للرجال مكان غير مكان النساء، أبدا، ﴿ **لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)** ﴾(١) المسألة اختلطت ﴿ **فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)** ﴾(٢) كل واحد ذهل عن مكانه، كل واحد ذهل عن عظمته، كل واحد ذهل عن مقوماته ﴿ **يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ** ﴾(٣). لأن هناك طامة كبرى.

وتشبيه الناس بالفراش في القرآن مثله تشبيه الرسول ﷺ الناس بالفراش في قوله: « **إنما مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا، فجاء الذباب والفراش تهافت على النار** ». فطبيعة الفراش عندما يرى ضوءا يأتي عليه « **وأنا آخذ بحجزكم** » يعنى الذى يتهافت على النار أشده بعيدا عنها « **ولكنكم تفلتون منى** ». يعنى أنا أريد أن أنجيكم من النار، ولكنكم تتحايلون على لكى ترتموا فى النار. أنا منهجى يبعدكم عن النار، إنما أنتم تتحايلون لكى تذهبوا إلى النار، يعجبكم البريق، ولا تدرون العاقبة. والمحتالون على التكليف يفهمون أنهم يذهبون إلى شئ معجب، وفى الحقيقة هم يذهبون إلى شئ معطب.

وبعد ذلك تأتى مرحلة الحساب. وكلنا سيعرض للحساب، هذا هو منطق العدل، منطق العدل أننا جميعا سنحاسب؛ لأنه لا يوجد أحد أبدا صفحته خالية. لكن الحساب سيكون على نوعين: حساب لعرض زلات الإنسان، يقول لك الله تعالى : هذه وهذه وهذه، لكنى غفرتها. ولذلك قال الرسول ﷺ للسيدة عائشة: « **ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب هلك** » فالخوف ليس من الحساب، وإنما الخوف من مناقشة الحساب. أما العرض فلإظهار نعمة الامتنان بأنك عملت وعملت، والله ترك لك ذلك.

---

(١) سورة عبس، الآية : ٣٧.

(٢) سورة المؤمنون، من الآية : ١٠١.

(٣) سورة الحج، من الآية : ٢.

ويقول الله تعالى فى ذلك: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩ ﴾(١). هذا هو السرور ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ ﴾(٢). وهناك آية تقول : (بشماله). وهو سيأخذ من وراء ظهره بشماله؛ خجلا حتى من الذى يناوله الكتاب ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝١١ ﴾(٣). والثبور: الهلاك. يعنى يقول: يا هلاك تعالى إلىَّ.

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكنَّ أمانيا

أى أن الشقي يرى أن الموت خير له من هذا الموقف، خير له من الهول الذى يراه.

وهناك وزن الأعمال ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾(٤)، ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ ﴾ ، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ ﴾(٥).

والميزان: آلة لضبط الحقوق، ومعنى آلة لضبط الحقوق، أى: فى الماديات. ويلاحظ أن العلماء قالوا: أهو ميزان له كفتان كميزان الدنيا له لسان وكفتان ؟ أجمع العلماء على أنه ميزان يناسب مقامه، وبهذا الشكل وله كفتان .. الخ.

وهل الأعمال أمور مادية بحيث توزن؟ لا، أبدا. ولكن لامانع من أن يجعل الله تعالى للأمور المعنوية شيئاً له ثقل، لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أعطى فى التمثيل المخيف للموت الذى هو المعنوى قال: ثم يؤتى بالموت فى صورة كبش فيذبح. إذن المعانى قد تتمثل فى أشياء لها وزن، والمعانى التى نعملها كلها تتجسم بأشياء لها وزن.

وبعد ذلك فهذا الميزن يقتضى كفتين، ويقتضى أن الشئ الموزون يوضع فى كفة والصنج فى كفة أخرى، معنى ذلك أنه يكون عندى حساب مرتين: خير يوزن

(١) سورة الانشقاق، الآيات : ٧ ، ٩.
(٢) سورة الانشقاق، الآية : ١٠.
(٣) سورة الانشقاق، الآية : ١١.
(٤) سورة الأنبياء، من الآية: ٤٧.
(٥) سورة القارعة، الآيتان ٦ ، ٨.

إلى شئ ثابت، وشر يوزن إلى شئ ثابت، وبعد ذلك نقارن بين الاثنين. أنا أزن إلى شئ ثابت، لماذا إزن إلى شئ ثابت؟ لأننى عندما أحضر الكيلو آخذ مقابله سلعة. لكن عندى هناك الذى تزيد حسناته على سيئاته وبالعكس.

إذن فالقياس بالنسبة للموازين هناك نسبة حسنات إلى سيئات، فمدار الوزن على مدى النسبتين لبعض، فأنظر ما هو الأثقل، وأوفر على نفسى الميزان الثانى، إذن أنا أعمل عملية واحدة، لماذا؟ لأن الموزون المقابل أنا لا أريده حديدا، وأنت لا تريده حديدا، فما دمنا سنرى النسبة لهما فنحن نضع الحسنة فى مكان والسيئة فى مكان، ولا نطيل على أنفسنا إجراءات الموازين.

إذن ما دامت نسبتها ثقل الحسنات أو ثقل السيئات فهما بالنسبة لبعضهما، فلا يعنينى أن أعرف تقييم وزن الحسنات فى ذاته ولا تقييم وزن السيئات فى ذاته، وإنما أعرف تقييم وزن الحسنات بالنسبة للسيئات.

والحق هنا حينما تعرض لكلمة الميزان ولعملية الوزن قال: (ثقلت موازينه) (خفت موازينه). والعملية الميزانية عقليا لا بد لها من ثلاث مراحل؛ لأن هذه الكفة ستثقل والكفة الثانية تخف، أو يصيران متساويين، فجاء بخفت وثقلت ولم يأت بالقسمة الفعلية فى (تساوت) لم يقل: حينما تتساوى ماذا يحدث.

هناك فى سورة الأعراف قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ** ﴾[1] لماذا؟ لأن هناك قضية، هى أن الرحمة سبقت الغضب، مسألة التساوى ستؤول إلى مسألة الرجحان، مسألة تساوى الحسنات والسيئات إذن مسألة تساوى الكفتين داخلة فى (فأما من ثقلت موازينه) عندما ثقلت وخفت بقيت (تتساوى). التساوى عندنا يعنى قضية أن الرحمة سبقت الغضب، وما معنى أن الرحمة سبقت الغضب ؟.

(١) سورة الأعراف، الآية ٤٦.

إن الرحمة إذن استوجبت رحمة واستوجبت غضبا، إذن الرحمة لها المقام الأول، وعند التساوى تزيد الرحمة: ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ﴾[1] إذن تصير إلى ماذا ؟.

كان عندنا هنا (فأما من ثقلت) فى الواقع، وأما من ثقلت بالإلحاق. إذن قول الحق: (وأما من خفت) يعطينا صورتين. هما صورتان فى الواقع، ولكن فى عملية الإلحاق ستصير هناك ثلاث صور، لأن التساوى فى الكفتين سيؤول إلى أن الرحمة تسبق الغضب، إذن الرحمة تأتى فى الميزان المتساوى فتجعله ثقيلا، إذن قوله تعالى: (فأما من ثقلت موازينه). أى ثقلت واقعا وحقيقة أو إلحاقاً بواسطة عنصر الرحمة حين تتدخل فى عملية التساوى.

وسواء كان الميزان حقيقيا ماديا والأعمال مادية فلماذا لا يبقى الميزان عملية معنوية أيضا ؟ سئل الإمام على ﷺ : أى مقدار من الزمن يتسع لحساب الله لكل الناس؟ أيحاسبهم مرة واحدة؟ قال: نعم، كما يرزقهم مرة واحدة، وليس رزق واحد بشاغله عن رزق الآخر ؛ لأن الطاقة إنما تنشغل إذا كانت محدودة. ولكن الطاقات غير المحدودة تعمل هذا وهذا وهذا. سبحان من لا يشغله شأن عن شأن.

وإذا كان هناك ميزان مادى فهذا صحيح. لكن سيحصل فيه عملية وهى نقل الأعمال المعنوية إلى مادية. ولماذا لا نعمل الميزان وننقله إلى معنويات؟ يصح هذا مادام فيه عملية نقل لأعمال معنوية. وأنت تقول: مادام هناك ميزان مادى فهناك تصير الأعمال لأشياء لها ثقل. ومادام سيحصل التحويل فى شئ فلماذا لم يحصل التحويل فى شئ واحد وهو الميزان بأن يكون أمرا معنويا.

والمراد: إقامة العدل بالقسطاس، وسنضطر إلى أن ننقل الأعمال من معنويات إلى ماديات، والأعمال كثيرة، فمن الأولى أن نفهم أن الميزان أمر معنوى، والمراد به إقامة العدالة المطلقة. إذن ننظر ما هو الأدق؟ إن الميزان إذا كان أمرا معنويا لا يؤمن فيه الهوى. أما إذا كان أمرا ماديا فالناس يقولون: وش الميزان حديد. يعنى لا

---

(١) سورة الأعراف، من الآية : ٤٦.

يستحى، إنما عندما يكون الحكم فى المعنويات لا تستطيع أن تدقق فى معرفة العدل المطلق، فكأن العدل المطلق نقل شئ هو الجماد الذى لا يجامل ولا عنده عواطف ولا أى شئ وإعطاؤه الأمر بالدقة.

ولذلك فنحن فى موازيننا عندما نريد عمل شئ دقيق كأن نزن شيئا له قيمة فإننا نزنه بميزان حساس . لماذا؟ لأن هذا الميزان الحساس يكون الاختلاف فيه فى أقل شئ له قيمة، إنما عندما أزن برتقالا أو ملحا أو باذنجانا فيزيد جراما أو جرامين فلا يهم. إنما الواحد من عشرة من الجرام فى الأشياء الثمينة له قيمة.

عندما يجلس القاضى نضع فوق رأسه صورة ميزان أهل هو يزن أشياء لها ثقل؟ لا، بل أشياء معنوية، ولكن الميزان يذكره بأنه يدخل فى المعنويات كما يدخل هذا الجماد بلا هوى منه، ويعنى الحق، ويعنى ألا تكون عاطفته مائلة، فهذا الميزان الحديد لا يجامل هذا ولا ذاك، فكأنا نقول له: كن فى عواطفك مثل الحديد، وإياك أن يكون لك هوى، وهذه مسألة دقيقة بالنسبة للتكوين البشرى. ليس سهلا على الإنسان أن يكون كذلك؛ ولذلك كان كثير من الناس يقدرون هذه المسألة فيمتنعون عن القضاء لا لأنه لا يريد أن يقضى بين الناس، بل لأنه لا يقدر أن يكون بدون هوى ولا عواطف؛ لأن العواطف لها تأثير.

مثلا نجد واحدا ذهب إلى الخليفة وقال له: يا أمير المؤمنين: اعزلنى عن القضاء. فقال له: لماذا؟ وهل نجد أعدل منك؟ فيقول: يا أمير المؤمنين: شاع عنى عند الناس أنى أحب الرطب، فبينما أنا فى البيت إذ طرق طارق، فخرج خادمى وعاد إلى بطبق من الرطب، وكان فى بواكيره، فانظر إنسانا يحب الرطب وقد جاءه الرطب فى بواكيره ، فانظر ما شكله؟ فلما رأى الرطب قال لخادمه: من الذى أحضره ؟ قال : رجل . قال: صفه لى. فوصفه، فقال: رده إليه، فرده، لماذا رده؟ لأنه عرف أن رجلا بهذه الصفة له قضية عنده. فلما أصبح وجلس للقضاء إذا بالرجل وخصمه، فو الله يا أمير المؤمنين ما استويا فى نظرى رغم أنى رددت الطبق، فما بالك لو كنت أخذته ؟!

فلما يخرج الميزان فالمسألة ليس فيها عواطف أبدا، إذن فالعدالة مضمونة: ميزان من حديد، وكفتاه من حديد، ولسان من حديد، وذراع من حديد، ليس له عواطف ولا أى شئ.

إذن ثقل الموازين وخفتها يوم القيامة سواء فهمناها بأنها ميزان الحق والعدل أو فهمناها بأنها ميزان مادى إن فهمنا أنه ميزان مادى فقد فهمنا المراد وهو أنه لا يجامل. وإن فهمنا أنه العدل والحق فلماذا جاء بكلمة ميزان؟ جاء بها ليذكرنا بأن الميزان حكم محكوم بأنه لا هوى له مطلقا؛ لأن الهوى إنما ينشأ من العواطف ومن الميول، والحديد والجماد لا عواطف له ولا ميول، فكل واحد يأخذ حقه لا محالة.

●●●

طريق الأمان ...

وطريق الخسران ....

إذا عرف طريق الخسران عرف طريق الأمان. وقد أجمل الله تعالى طريق الخسران فى قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾(١).

مالذى ألهانا عن تلك الموازين؟ وعن تلك النهاية؟ فانشغل الإنسان عن الأعمال التى تثقل موازينه، وتلهى بالأشياء التى تجعل موازينه خفيفة؟! وتلك هى الغفلة، وذلك هو النوم، وذلك هو الغباء، وهذا تحذير من الله تعالى عن تضييع مطلوبات الله تعالى من الإنسان فى الوجود.

والقرآن يستغل بعض الأحداث لإبراز هذا المعنى، فيجعلها مناسبة لعرض هذه الصورة، لا يلقى القرآن الكلام إلقاء نظريا، بل ينتظر القرآن إلى أن يأتى حدث من الأحداث يجعل للصورة موقعاً فى مطلوب الحدث.

يحدثنا المؤرخون والمفسرون أنه فعلا حدث ذلك، حدث أن تكاثر قوم من بنى عبد مناف مع قوم من بنى سهل. ولا يقال فلان تكاثر مع فلان إلا إذا كان فلان تكاثر أيضاً عليه، فأنا أكاثرك وأنت تكاثرنى. فكل واحد منهما فاعل ومفعول. وتكاثر القوم، أى :كاثر بعضهم بعضا.

والحق يقول: ﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ** ﴾ أى الصادر منكم جميعاً. كل واحد يكاثر الآخر، وكاثره تأخذ معنيين. المعنى الأول: أن تكاثره بماوقع عندك من النعيم وأن يكاثرك بما وقع عنده من النعيم، يقول: مالى أكثر من مالك، آبائى أكثر من آبائك، ولدى أكثر من ولدك، أو التكاثر بمعنى أن تصرفوا جهودكم فى أن تكونوا أكثر من الناس أشياء فتستقبلوا أعمالا تريدون بها أن تكاثروا الغير. فعلى المعنى الأول المتكاثر فيه يكون موجودا، وعلى المعنى الثانى يكون التكاثر مطلوبا، فالذين

---

(١) التكاثر، الآيتان : ١، ٢.

يتفاخـرون بما عندهم هو المعنى الأول، والذين يطلبون أن يكونوا أكثـر من غيرهم هو المعنى الثانى. هما مرادان من القرآن.

والإلهاء: أن يوجد شئ يسيطر على فكر الإنسان فيجعل غير المطلوب منه أهم من المطلوب، فيوجـه طاقته إليه، واللهو يقتـرب من اللعب؛ لأن اللعب أن تشتغل بشئ تافه ليس فيه غناء، وتترك شيئاً آخر.

وبما أن الإنسان حينـما يستقبل الحـياة لا يكون مكلفا أول الأمر، فـأول مايبدأ أمره يبدؤه باللعب ثم ينشأ اللهو بعد التكليف، ولذلك يقول القرآن: (ألهاكم) لأن اللهو يكون فى منطقة التكليف، لأن فيه مطلوبا منك شغلت نفسك عنه.

والحق سبـحانه يقول إن التكاثر قـد ألهاكم، وظللتم صامـدين فى هذه الغفلة مخمورين مـعزولين عما طلب منكم ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ما مـعنى زرتم المقابر؟ ربما كـانت له صورة واقـعة، بحيـث إنهم تفاخـروا بالأحيـاء حتى انتـهى التفـاخر بالأحيـاء إلى أنهم ذهبوا ليتـفاخروا أيضـاً بمن فى القبـور. أى كأن تكاثرهـم أداهم إلى أن يزوروا القبور ليضموا إلى تكاثرهم بالدنيا تكاثرا كان موجودا ثم مات، أى أن الإلهاء بلغ بكم أن شغلتم به كل الوقت حتى فوجئتم بالموت، يعنى ظللتم طول حياتكم فى تكاثر حتى شغلتم بالموت.

والعربى يستقبل القرآن بإيحاءاته وخلفياته المعبرة فحينما سمع هذه الآية قال: نعى الناس إلى أنفسهم ورب الكعـبة. والله لقد قامت القيامـة. فالموت ليس نهاية الأحياء، إنما هو مـرحلة يأتى بعدها أمر آخر، وسـيعيشون ثانيـة، وفترتكم فى هذه القبور قصيرة مثل فترة الزيارة ؛ لأن الزائر غير مقيم.

واللهو هنا عن المصيـر، والذى يوجب اللهو عن المطلوب هو عدم استـحضار الجزاء واضحا فى النفس، والنفس تراه، فـلا يمكن أن يلهو إنسان عن مطلوب منه، ولا يمكن أن يعصى إنسان أبدا.

والرسول ﷺ يبـين سبب الغفلـة بقوله: «**لا أرى يقينا أشبه بالشك من يقين الناس بالموت**». هو يقين، ولكنه يقين فـيه قليل من الشك، ولو لم يصحـبه الشك لكان الإنسان دائما يستحضر الموت ، ولو استحضروا الموت لما غفلوا أبدا.

عذاب النار

جزاء وفاق

يقول الله تعالى فى عذاب الكافرين فى الآخرة: ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) ﴾[١] أى موافقا لما عملوه فى الدنيا من موبقات، وكلمة (وفاقا) تمنع العاطفة الحمقاء التى تحدث لبعض الناس حينما يسمعون عن عذاب يصيب بعض الناس، فتتحرك هذه الرحمة الحمقاء لتقول : هذا عقاب قاس ؛ فالحق - سبحانه وتعالى - يعرض الأسباب الموجبة لذلك العقاب ويقول: لا تظنوا أننا أسرفنا فى عذابهم، بل إن ذلك الجزاء موافق لما فعلوه ولما قدموا ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨)** ﴾[٢].

فالجزاء الذى يناله المجرمون إنما استحقوه لأمرين: الأول أنهم كانوا لا يرجون حسابا ، كيف لا يرجون حسابا؟ لأنهم لا يؤمنون بالمحاسب، أو يؤمنون بالمحاسب ولكنهم يتعجبون كيف نعود ثانية بعد أن كنا عظاما ورفاتا: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾[٢] إما لأنهم لا يؤمنون بالمحاسب وهو الحق، وإما أنهم يؤمنون به ولكن يستبعدون أن يعيدنا ثانية. وكلمة ﴿لا يرجون حسابا﴾ هذه مبدأ، وإذا استقرأت كل فساد فى الدنيا وجدته ناشئا من هذا المبدأ.

متى يفسد المجتمع؟ حين لا يرجو أعضاء المجتمع أو لا يتوقعون حسابا على تصرفاتهم. فحين يكون المجتمع فيه هذه الصفة - وهى أنه لا يتوقع حسابا على تصرفاته - ينطلق كل من فيه فى حركة حياته كما يحب وكما يشتهى وكما يهوى. إذن فالضامن لصلاح المجتمع بعينه هو الضامن لصلاح الآخرة إذا كان هؤلاء حصل لهم هذا لأنه ﴿ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾[٢] إذن فعدم توقع الحساب من

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٢٦

(١) سورة النبأ، الآيتان : ٢٧ ، ٢٨.

الإنسان يجعله ينفلت فى حركة حياته غير متقيد بنظام قيمى ولا بنظام عقدى، لأنه لا يتوقع حسابا.

كذلك فى الدنيا متى يكون الفساد فيها؟ حين لا يتوقع المجتمع حسابا. أما إذا توقع المجتمع حسابا فحين يتذكر كل إنسان أنه سيحاسب على تصرفاته فإن المجتمع سينتظم، ومتى لم يتوقع المجتمع حسابا ؟ إما لأن وليه وحاكمه غافل لا يأخذ باله من التصرفات، ولا يوقع جزاء على الجرائم، فإن المجتمع يفسد ، أو لأن المجتمع لا يحاسب صاحب الجريمة، أو لأن نفس الإنسان لا تحاسبه على ما اقترف إذن المحاسب سيكون فى المجتمع ثلاثة أشياء: إما الحاكم الذى نصبه الله ليقيم حدوده فيه، وإما المجتمع، وإما النفس.

وهذه الثلاثة لم يهملها القرآن، ولكن القرآن يحتاط للجريمة قبل وقوعها، بحيث لا تقع على عين الحاكم، ولا عين المجتمع، فإن لم يكن للإنسان وازع من نفسه يقول له: إن عميت عن قضاء الأرض فلن أعمى عن قضاء السماء، إذن فالعاصم النهائى الذى يستوعب كل هذا هو أن يعتقد الإنسان أنه محكوم أمام عين خبير لا تخفى عليه خافية، ولا يستطيع أحد أن يستتر عنه. وأن كل إنسان مردود إليه ليحاسبه.

فهبنى أفلت من جزاء المجتمع ومن جزاء الحاكم، وضميرى قد تبلد، ماذا يكون الموقف؟ الموقف أنه لا يكون عاصم من الشر ولا من الفساد إلا وازع الدين والإيمان بالله رقيبا وحسيبا، الذى لا تخفى عليه خافية، وأنى لا محالة واقف أمامه. هذا يجعل الإنسان لا يفكر مجرد تفكير فى الشر ، لكن الحاكم أو الضمير أو المجتمع يمكن أن ينفلت منها الإنسان.

إذا نظرنا إلى قوله تعالى : ﴿لا يرجون حسابا﴾ وجدنا الذين لا يرجون حسابا فى الآخرة يفسدون الفساد الأصيل، من القمة كفرا بالله إلى أصغر الصغائر، أما فى الدنيا فأيضا الفساد لا يتأتى إلا إذا كنا لا نرجو حسابا، هب أن مجتمعا من المجتمعات وجد فيه حاكم ، إلا أن الحاكم غير عادل، ومعنى (غير عادل) أنه

يخص طائفة بأنه لا ينفذ عليها القوانين، وطائفة ينفذ عليها القوانين. بالله إذا رأيت طائفة تنفذ عليها القوانين وطائفة لا تنفذ عليها القوانين ماذا يكون موقف المجتمع؟ المجتمع سيختان. ما معنى (يختان) ؟ يقول: أنا أستتر بالجريمة ما أمكن، إذن لما الرسول ﷺ قال: « **إنما هلك من كان قبلكم بأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد** ». فقد كان بصيرا بما يصنع التفسخ فى المجتمع، كذلك إذا كان الحاكم غافلا، ليس له عين متيقظة فإن المفسد يقول: ومن الذى سيريني للحاكم وأنا أفسد ؟.

الحق سبحانه يقول : ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾(١) أترك هذه لأنها وازع دينى، والمؤمنون يعنى الجو المحيط بكم، فإن فسد هذا الجزء من الإنسان يقول له: خذ المعين الذى فى نفسك، والذى هو ضميرك، يقول الحق: ﴿ **فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾(٢) يعنى بعدما أرضى نفسه بقتل أخيه تنبه فيه شئ فندم، ويقول القرآن كذلك: ﴿ **اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** ﴾(٣). ويقول: ﴿ **إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ** ﴾(٤). واحد يشفى نفسه بأن ينم على إنسان أو يشى به وشاية، هو أرضى نفسه لكراهيته لذلك الإنسان، ولكن حين تقع على ذلك الإنسان عقوبة بسبب تلك الوشاية ماذا يحدث له؟ نفسه تؤنبه. هذه هى مدرسة الضمير.

لكن الضمان الذى فوق مدرسة الحاكم ومدرسة المجتمع ومدرسة الضمير هو الضمان الدينى.. الذى يعتقد فيه الإنسان أنه يرجو حسابا من إله خبير يعرف كل شئ. إذن قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً** ﴾(٥) علة لكفرهم، وعلة لفسادهم، وعلة لا ستهزائهم ووقوفهم من محمد ﷺ موقف الصد وموقف العدوان وموقف الأضطهاد. كل هذا ناشئ من ماذا؟ من أنهم ﴿ **كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً** ﴾(٥).

---

(١) سورة التوبة، من الآية ١٠٥.
(٢) سورة المائدة، من الآية ٣٠.
(٣) سورة الحجرات، من الآية ١٢.
(٤) سورة الحجرات، من الآية ٦.
(٥) سورة النبأ، من الآية ٢٧.

والسبب الثانى الذى من أجله استحقوا العقوبة ولا يستحقون الرحمة الحمقاء التى يتشدق بها دعاة الإنسانية الكاذبة هو قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا** ﴾[1].. وكلمة (كذابا) هذه جاءت فى موضعها تشدد على الكذب. لم يقل:وكذبوا بآياتنا تكذيبا. أو كذبا، فلماذا قال: (كذابا) نحن نجد أن كلمة (كذابا) مصدر زمان مثل التكذيب. ويقولون بأن هذه لغة أهل اليمن. ولكن إذا قلت: كذب فلان فلانا.. أو تكذيب فلان لفلان لا يجعلك تلقى اللائمة على من كذب، لأن من الجائز أن يكون صادقاً فى التكذيب، واحد ذكر خبرا أمامك، فأنت كذبته فى هذا الخبر، أليس من الجائز أن يكون تكذيبك له صحيحا؟ لكن هنا قال: ﴿ **وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا** ﴾ يعنى: هم غير صادقين فى تكذيبهم بآ ياتنا. هم كاذبون.

أنا أريد شيئين: أنه أخبر أنهم كذبوا بآيات الله، ثم حكم على تكذيبهم بأنهم كاذبون فيه، هناك شئ فى اللغة اسمها (احتباك) وهو أن يكون عندك جملتان، كل جملة لها ركنان، فتحذف من الجملة الأولى ركناً، وتحذف من الثانية ركنا، لكن الركن المحذوف فى الثانية له دليل فى الأولى، والمحذوف فى الأولى له دليل فى الثانية، مثل قوله تعالى: ﴿ **قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ** ﴾[2] كان المقابل: فئة تقاتل فى سبيل الشيطان، هذا هو المقابل للفئة التى تقاتل فى سبيل الله، كان نص الآية: فئة تقاتل فى سبيل الله وفئة تقاتل فى سبيل الشيطان.. لكن القرآن مبنى على الأسلوب العالى من البلاغة فحذف كلمة مؤمنة من الأولى، واستدل عليها بمقابلها فى الثانية فقال: ﴿ **فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ** ﴾[1] إذن تكون فى الأولى (مؤمنة). أخذناها من أين ؟ من مقابلها فى الآية ﴿ **وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ** ﴾، ﴿ **فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾. مادام بالعكس تكون الثانية (تقاتل فى سبيل الشيطان).

ونحن نعلم أن الكذب هو عدم مطابقة الكلام للواقع، لأنه حينما يتكلم

---

(١) سورة النبأ، الآية ٢٨.

(٢) سورة آل عمران، من الآية ١٣.

الإنسان بأى نسبة من النسب الكلامية التى لم ينطق بها إلا بعد أن دارت فى ذهنه وكانت نسبة ذهنية، وقبل التفكير فيها نسميها خبراً. وإن كان واقعها يأتى بعد الكلام نسميها إنشاء.

وقد نافقوا وأوهموا المسلمين أنهم مصدقون لله فى رسالة محمد ﷺ. ولكن الحكيم الخبير كشف عن كذبهم بقوله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾(١) قال: إنهم كاذبون مع أنهم قالوا: نشهد إنك لرسول الله، سماهم كاذبين مع أنهم قالوا: إنك رسول الله. فتكذيب الله لهم لا فى أنه رسول الله. بل فى قولهم (نشهد) لأنها ليست شهادة بل هى كلام من لسانهم لم يصادف إيماناً من قلوبهم حتى يكون شهادة؛ لأن الشهادة أن يقول اللسان قولا مطابقا لما فى الضمير، وهم غير مؤمنين بذلك، بل قالوها بألسنتهم.

وهناك سبب آخر استدعى عقاب هؤلاء الكافرين بأقسى العقوبات دون استدعاء رحمة لهم من أحد، ذلك أنهم كانوا يسخرون من المؤمنين فى الدنيا. يقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ**﴾(٢).. قابل (أجرموا) بآمنوا، لكى نعرف أن الجريمة العظمى والخيانة العظمى هى خيانة الكفر.. وهنا الأسلوب فيه لفتتان: أولا كلمة (كانوا) تدل على أن إخبار الحق بهذه الصورة إخبار عن شئ مضى وانتهى زمنه. ومعنى هذا أن الأمر الذى وقع بكم أيها المؤمنون من استهزاء هؤلاء وضحكهم سيصير مدلولا عليه بكانوا. يعنى أن هذه الحالة لن تستمر معكم، وأن الكفار سيعودون إلى رشدهم الإيمانى، ويعودون مؤمنين. هذا فى الدنيا.

لكن لما قال لم يقل: ضحكوا. إنما قال: ﴿ **مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ**﴾(٢). يريد بذلك استحضار الصورة، ومعنى استحضار الصورة: أن الفعل المهيج أو المقزز

(١) سورة المنافقون، الآية ١.

(٢) سورة المطففين، من الآية ٢٩.

ساعة أن تحكى عنه أنه مضى فصورة وقوعه الإيلامية تنتهى. لكن إذا أردت أن تصور بشاعتها فإنك تستحضرها حالة وقوعها. فلو قال (ضحكوا) يمكن أن تكون الصورة أنتهت. إنما قال يضحكون فأراد بذلك شيئين: أن يدل على أن هذه حالة لا تدوم، وأنه يريد استحضارها لأنه خير.

ونظير هذا من أفعال الكافرين التى استحقوا عليها العقوبة قوله تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**(١). قال هذا مع أن القوم الذين جاء القرآن لخطابهم لم يباشروا قتل الأنبياء. لم يقل: فلم قتلتم. بل قال: (فلم تقتلون) ليستحضر الصورة البشعة التى كانت أيام كانوا يقتلون الأنبياء.

إذن فالأسلوب القرآنى هنا حين يقول: **﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾**(٢) يعطينا شيئين، ونحن نعرف أن الضحك انفعال من المفارقات. هذا الانفعال لا يصنع، لأنك لو سألت الناس ماهى ماهية الضحك؟ فلن يستطيع أن يعبر عنها، ماهى الأعضاء التى تجعل الإنسان يضحك؟ لا يقدر أحد أن يعرفها. إذن نحن لا نعرف ماهو الضحك ولا ماهية تكوينه ولا ماهى الأعضاء التى تنفعل له ولا ماهى الحالة النفسية التى تجعلك تضحك.

ولذلك الحق سبحانه يقول: هذا من خصوصياتى **﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾**(٣). وهذا دليل على أن العقل البشرى لا يمكن أن يتسامى ويعرف كنه الضحك، إنما يعرف متى يضحك، ولا يقدر أن يتحكم فى الضحك، فهذه العملية الصادرة من الكافرين ليست أختيارية منهم. إنما هى ناتجة للانفعال النفسى الموجود عندهم. فكأن السخرية من المؤمنين أصبحت ملكة وطبيعة وجبلة بحيث لا نقول فيها: إنهم يتضاحكون بل هم يضحكون.

---

(١) سورة البقرة، الآية :٩١.

(٢) سورة المطففين، من الآية : ٢٩.

(٢) سورة النجم ، الآية: ٤٣.

أطلق القرآن الضحك، ولكن تمام الإجرام الكفرى هو قوله: ﴿ **وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ** ﴾(١) فجاء عند مرور المؤمنين أتى بالتغامز. وهو عملية غمز العين، لماذا؟ لتشعر من معك ومن هم من صنفك أنك تهزأ، ولا تحب أن يعرف من تهمزه ذلك.

فالصورة أنهم كانوا إذا جلسوا مجالسهم الخاصة ولو لم يمر بهم المؤمنون يتخذون من المؤمنين مادة سمر، وساعة ما يمرون بهم يغمزون ويقولون: هؤلاء الذين كنا نتسامر فى سيرتهم. فجاء بصورة مشهدية وصورة غيبية، الصورة الغيبية هى: كانوا يضحكون فى مواجهتهم أو فى غير مواجهتهم. كأنهم أصبحوا مادة للضحك، وبعد ذلك إذا مروا بهم يتغامزون.

ومن تمام الصورة الكفرية أنهم ﴿**وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ**﴾(٢) فالضحك غريزة فيهم؛ لأن الإنسان قد يريح نفسه قليلا بأن يعمل شيئاً مخالفاً للآداب مع أى إنسان، وبعد ذلك يندم ويقول: ليتنى لم أعملها، ولكن لوم النفس على مافرط منها لا يوجد من الكفار. بل إذا ذهبوا إلى أهلهم يقولون لأهلهم: لقد قابلنا المؤمنين اليوم وشبعنا منهم ضحكا وسخرية ويستديمون العملية، أما الذى عنده بقية من كرم النفس فإنه يعود إليه بعض ما فيه من كرم النفس ويقول: ليتنى لم أعملها !! ولكنهم يعودون إلى أهلهم ناعمين فرحين؛ لأنهم عملوا فى المسلمين هذه العملية.

ومن تمام إجرام المجرمين أنهم كانوا يقولون عن المؤمنين إنهم ضالون: ﴿**وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ**﴾(٣)، من هو الضال ؟ مفهوم الأمر عندهم أنه ليس هناك شئ إلا هذه الدنيا. فالذى ينجح فيها ويفلح هو صاحب الفلاح، والذين يشترون الغيب ولو كان يجئ فهم الضالون، إذن هؤلاء المؤمنون هم الضالون بحكم مقاييسهم فى الهداية والضلال لا فى حقيقة الهداية والضلال.

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٣٠.

(٢) سورة المطففين، الآية ٣١.

(٣) سورة، لمطففين، الآية: ٣٢

وهم لذلك منكرون أن هذه دعوة، فاهمون أنها كذب وافتراء. ولذلك فيوم القيامة يضحك المؤمنون من الكافرين ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾(1).

والقرآن لايريد من المؤمن أن يستقبل الإيمان على أنه سيجازيه فى هذه الدنيا، يريد أن يسقط الدنيا من حسابه، ولذلك نجد فى بيعة العقبة أن الأنصار قالوا: فماذا لنا لو فعلنا ذلك؟ فقال لهم: لكم الجنة. لم يقل لهم: إنكم ستنصرون ويكون لكم كذا وكذا؛ لأنه فى وقت التربية: تربية الجنود على أساس المبدأ. ولا يريد أن يدخل الدنيا فى حسابهم، وإن أدخلها فى حسابهم بعد فى قوله تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (20) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾(2).

صحيح أنه تعالى ألمح لهم بهذا، ولكن ليس على أن هذا هو الجزء لكيلا يدخل المؤمن الدنيا فى منهجه ولا فى حسابه أبداً.

وقد جاء التلميح بالجزاء الدنيوى فى المدنية، لأن العقيدة قد قويت ودخلوا فى الدين على أن هذا الدين رافض للدنيا من حسابهم. ثم قال لهم: أريد أن تنتصروا عليهم لا لأن هذا النصر جزاء لكم، ولكن لأن هناك دينا أريد أن يطبق فى الأرض، وأنتم الموكلون بقيادة الناس تحت لوائه، فإن جصل نصر فلا تعتقدوا أن النصر جزاؤكم على إيمانكم، لأن ما يحدث لكم من الغلبة والفتح والنصر ليس ثمنا؛ لأننا ربيناكم على أن هذه الدنيا مطروحة من حسابكم، وإنما نصرناكم لتحملوا دين الله إلى كل الأرض، ولتكونوا خير أمة أخرجت للناس.

فحين يتربى المؤمن على أن الدنيا ساقطة من حسابه يدخل المعركة الإيمانية

---

(1) سورة المطففين، الآية : 34 .

(2) سورة الفتح، الآيتان : 20 ، 21.

وليس فى بالـه إلا هذه الغـاية، ومـادام ليس فى باله إلا هـذه الغـاية فـلا يذل أبدا، الناس استذلوا بشيئين : كراهة الموت، وحب الدنيا. كل أنواع الذل أننا نكره الموت ونحب الدنيـا، ولذلك قيل: مـا الوهن يا رسـول الله؟ قال: حب الدنيـا وكراهيـة الموت. ساعة تكره الموت وتحب الدنيا يركبك خصمك ويستذلك.

●●●

جزاء المحبين للدنيا

نزلت سورة فى القرآن تعطينا القيمة التى يعتد بها فى ظاهر الحياة، وهى قيمة المال، وتعطينا صورة صاحب المال وأنه إذا حاز المال اختلت موازينه فى تقييم الناس، وأصبح من لا مال له فى نظره خسيسا، ومن له مال فى نظره عظيما. هذه النظرة يريد الحق سبحانه أن يلفتنا إليها لفتة تقوم من رأينا فيها، فيقول سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ① الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾(١).

والويل : لفظ له مدلول لغوى، وليس المدلول اللغوى مرادا، وإنما المراد المدلول الاصطلاحى الذى يريده الله تعالى؛ ولذلك قال بعضهم: الويل واد فى جهنم من أقسى الوديان.

وإذا هدد الله صاحب المال المنحرف بالويل فهو تهديد واقعى وليس مجرد تخويف؛ لأن الذى يطمع الإنسان فى ألا يعبأ بالتهديد هو: أن الذى هدد لا يضمن أنه سيظل باقيا إلى أن يحقق ما هدد به، أو أنه لا يملك أن تظل له القوة على تنفيذ تهديده، أو أن الشخص الذى وقع عليه التهديد يمكن أن يكون أقوى ممن هدده مستقبلا. لكن إذا كان الذى هدد هو الله الباقى القادر على إنفاذ ما هدد به، ولن يفلت العبد من يده، فمعنى ذلك أن هذا وعيد من صنف آخر، وعيد ممن لا يتسرب إلى نفسك أمل فى أن تفلت منه.

والهمزة: الذى يهمز الناس ، أى يعيبهم، إما أن يعيب خلقتهم، وإما أن يعيب وضعهم الاجتماعى وإما أن يعيب تصرفاتهم، واللمزة: الذى يأتى بالشئ الذى فيه لمز ، واللمز تارة يكون باللسان وتارة يكون بإشارة العين، وتارة يكون بتقليد الحركة. هو العياب الغماز الذى يسئ إلى الناس إما بعينه وإما بلسانه وإما بتقليد

---

(١) سورة الهمزة، الآيتان : ١، ٢.

حركاتهم واحد يمشي مشية فيأتى هذا ويقلده، أو يخرج له لسانه، أو يغمز له بحاجبه، فهذا يسمى همزة لمزة.

ولكن ما الذى جعله ينزل إلى هذا المستوى ويعيب الناس فى أشخاصهم؟ لأنه يفهم أنه صنف آخر من الناس، وما الذى جعله يفهم أنه صنف آخر من الناس؟ المال الذى عنده. إذن صدق الله فى قوله: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۝١ الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾(1).

عدده يعنى أحصاه، وكل ساعة يطمئن نفسه عليه مثلما يفعل البخلاء، يغلق على نفسه الباب ويأخذ فى عد المال، وبعض الناس يظن أن ماله يعطيه الخلود طويلا فيبعد عن واقع الحياة، والخلود هنا يعنى أنه يريد أن يحول المال من عرض زائل إلى صفة دائمة، وهذا غير موجود فى الدنيا أبدا، وهو لن يكون سخيا كريما لأن الذى يجعل الإنسان سخيا كريما هو خوفه أن يحتاج فى الدنيا فيجد من يعينه، أما هذا فقد ظن أن ماله دائم ولهذا بقى معه الشح والبخل.

وعقوبة هذا الصنف من الناس يوم القيامة تناسب البداية، ويقول الله تعالى فيها ﴿ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾(2)، وكلمة (النبذ) معناها الاحتقار والمهانة ؛ لأن هذا الشخص كان يهمز الناس ويلمزهم ويحتقرهم ويستخف بهم، فكانت عقوبته من جنس ما قدم، وهو النبذ والطرد، وليته كان طرداً من حضرة الله أو من نعيمه فقط، بل إنه نبذ فى منطقة من جهنم اسمها « الحطمة »، ومعناها: الشئ الذى يحطم بشدة وقوة. وهو مناسب لجمع المال، فما جمع يتحطم. وهذا هو مدلولها اللغوى (الحطمة) الشئ الذى يحطم بشدة. ولكن لها مدلول آخر اصطلاحى هو ما جاء به القرآن: ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾(3)، هى نار، ولكنها ليست مثل نار الناس فى الدنيا، بل هى نار الله.

ونار الله تأخذ وصفاً مناسباً لجبروت الله تماما كما دعا رسول الله ﷺ على

---

(1) سورة الهمزة، الآيتان: ١ ، ٢.
(2) سورة الهمزة، الآية: ٤.
(3) سورة الهمزة، الآيتان: ٦ ، ٧.

ابن أبى جهل وقال: «أكله كلب من كلاب الله » فأكله سبع، فكلب الله فى الدنيا هو السبع، ونار الله فى الآخرة ليس لأحد من خلق لله أن يحجزها؛ لأنها نار الله، وليس فى مقدور أحد أن يطفئها ولا أن يتصور شدتها.

هى نار ﴿ **تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ** ﴾[1]. يعنى تظل تعمل فيه إلى أن تصل إلى قلبه، فما كان موجودا فى القلب من حب المال واحتقار الناس يحترق بنار الله. وهى نار لا يمكن أن يفلت منها المعذب بها؛ لأنها ﴿ **مُّؤْصَدَةٌ** ﴾[2]، لا يفرون منها. ﴿**فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ** ﴾[3] يعنى هى عبارة عن أعمدة طويلة من النار، غابة من أعمدة النار المركزة تحيط بصاحبها فلا يفلت أبدا.

وقد تعرض القرآن الكريم لخطأ الناس فى فهم نعمة المال حتى لا يقعوا فى هذه العقوبة القاسية، فقال تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ** ﴾[4] وقد رد الله على الاثنين، فلا الذى أنعم الله عليه بنعمة المال دليل على الإكرام ولا الذى منع عنه المال دليل على الإهانة، كلا النظرين خطأ، بل إن الحكم الصحيح يكون تبعا للمصرف، حين يكون واحد منكم عنده مال فالتصرف الجيد فيه هو: إكرام اليتيم، والحض على طعام المسكين ﴿**كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾[5]، ثم بين سبب ذلك فقال: ﴿ **وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** ﴾[6]، والتراث هو الميراث، يأخذه الأقوياء أو الذكور، ويمنعون الباقى. إذن فقد أصبح مصدر المال حراما، فكيف يظن من أوتى مالا أنه إكرام، لا، إنما هو ابتلاء، وكذلك من حرم المال فليس هذا الحرمان إهانة.

ومن تصرف فى المال على غير ما أراد الله من إكرام اليتيم وطعام المسكين فإنه

---

(١) سورة الهمزة، من الآية : ٧.

(٢) سورة الهمزة، من الآية : ٨.

(٣) سورة الهمزة، الآية : ٩.

(٤) سورة الفجر، الآيتان ١٥ ، ١٦.

(٥) سورة الفجر، الآيتان: ١٧ ، ١٨.

(٦) سورة الفجر، الآتان: ١٩ ، ٢٠.

سيعاقب بنفس المال الذى أحبه وهام به ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾(١).

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾(٢).

فيمكن أن يكون الحرمان رحمة وليس إهانة.

كثير من الأغنياء لم يوفقوا لا فى استنباط أموالهم ولا فى استغلال أموالهم ولا فى مصرفها، وحين نتأكد من ذلك نقول: إن المال ليس إكراما لكم أيها الأغنياء ومنع المال عنكم ليس إهانة لكم أيها الفقراء. وكلا الأمرين ابتلاء واختبار، فمن شكر الله بإطعام المسكين وإكرام اليتيم فقد نجح فى الإمتحان، ومن صبر وشكر على الحرمان لأنه أعفى من الابتلاء بالمال فقد نجح فى الامتحان.

وأيضا يجب أن يحترم الإنسان قدر الله وعطاءه فى خلقه، وحين يعتدل المقياس فى الحياة، ذلك المقياس الذى أتعب الدنيا كلها حين يقارن إنسان بإنسان فلا ينظر إليه إلا من زاوية المال، هذا المقياس الخاطئ لابد من تعديله. لا تنظروا إلى الناس من حيث المال، بل هناك نواحى الأخلاق، ولكن الناس ليس عندهم إلا زاوية المال ومقياس المال، وهذا هو محط الامتحان والابتلاء والعذاب.

●●●

(١) سورة آل عمران، من الآية: ١٨٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٥.

الحائدون عن طريق الله

الإذلال والندم والتوبيخ وكل ما من شأنه أن يكشف عن ضلال الحائدين عن منهج الله هو نصيبهم من يوم القيامة. وقد صور الله تعالى هذا الإذلال فى قوله تعالى: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ** ﴾(١) الآيات.

فهذه الوجوه المتكبرة التى أبت أن تخشع لله تعالى خشوعا اختياريا فى الدنيا هى خاشعة يوم القيامة خشوعا اضطراريا. والخيبة تظهر هنا عليهم، ها هى الوجوه عاملة ناصبة، لم تأخذ شيئاً من نصبها وعملها فى الدنيا، بل عمل ونصب لنفسه ولجاهه، ولأولاده، ولمركزه، كل هذا تعب فى الحياة، وبعد ذلك يجد عمله فى الآخرة هباء لا نفع فيه أبدا، وياليته لم يجد نفعا فقط، بأنه فقط لا يدخل الجنة، بل يدخل النار أيضا، إذن هذا هو حمق الحركة فى الحياة؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يقول: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ﴾(٢) لماذا؟

لأنهم عملوا فى الدنيا، ولم يكن فى بالهم الله، عملوا العمل فى الدنيا بمنطق المادة، هم والمادة فقط، لم يكن الله فى بالهم. وكل إنسان يعمل عملا إنما يطلب أجره ممن عمل له، فما دمت قد عملت فى حياتك وأجهدت نفسك وتعبت وشقيت، وليس فى بالك الاتجاه إلى الله بعملك، فكيف تأتى يوم القيامة لتأخذ منه أجرا؟ أنت فعلت ليقال فعل، وقد قيل وانتهت المسألة؛ و لذلك قال تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا**﴾(٣). ويصور أعمالهم أيضا بقوله: ﴿**كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ** ﴾(٤).

---

(١) سورة الغاشية، الآيات: ٢ ، ٥.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

(٣) سورة إبراهيم، من الآية: ١٨.

(٤) سورة النور، من الآية: ٣٩.

انظر المفاجأة بكلمة ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ ﴾. ساعة ما يفاجأ بوجود الله عند عمله الذى هو كسراب بقيعة لم يكن الله فى باله حين عمل العمل، هنا الله وحده هو الذى يعطى الأجر، فحين يفاجأ بالله الذى لم يكن فى باله ولا فى حسابه ساعة يعمل، فكيف يطلب منه أجرا؟! بل يقول له: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾(١).

إذن هذه الوجوه لم تخشع اختيارا، بل خشعت اضطرارا، بل إنها عاملة ناصبة تصلى نارا حامية.

يريد الله أن يبين لنا حمق الحركة فى الحياة، حمق العمل، حمق النصب والتعب، وأنهم لم يفكروا كيف يعملون العمل المؤدى إلى غاية تعوض عليهم تعب العمل، وأن الجزاء هو ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ④ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ⑤ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾(٢).

وصليان النار الحامية أول ما يوحى بحرارة الجوف، وهنا قد يظن الظمآن أن الماء يبرده.

ولكن الذى يشربه هذا المعذب ماء عين آنية. يعنى شديدة الحرارة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾(٣).

أما طعامهم فهو (الضريع)، والضريع فى لغة العرب التى نزل بها القرآن: شجرة يقال لها (الشبرق) وبعضهم قال: إنه نبات فيه شوك، فإذا نضج وتم نضجه أصبح ساما، وهو نبات ترعاه الإبل، فهذا النبات هو طعامهم. ومرة أخرى يقول: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾(٤)، ومرة أخرى يقول: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ⑥② إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ⑥③ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ⑥④ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ

(١) سورة الأحقاف، من الآية ٢٠. (٢) سورة الغاشية، الآيات: ٤ ـ ٦.

(٣) سورة الكهف، من الآية: ٢٩. (٤) سورة الحاقة، من الآية: ٣٦.

رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾[١].

إذن فمقامات العذاب مختلفة، واحد طعامه ضريع، وواحد طعامه غسلين. والغسلين: هو الصديد. وواحد طعامه الزقوم. إذن هى مراتب فى التعذيب، ومراتب فى الإيلام. وهذه المراتب الإيلامية يسبقها خشوع الوجوه وذلها.

الله يحكى حالتهم فى الدنيا، ويبين أن حركتهم كانت إلى بوار وهلاك، وأن وجوههم ستكون خاشعة فى الآخرة، وستكون ناصبة، سيسحبون فى النار على وجوههم، ويسيرون فى وهاد جهنم وأوديتها، فهى مشقات ومتاعب وأهوال فوق العذاب.

والله حينما يصور ألما أو عذابا بصورة التصوير الذى تأتى به اللغة للمخاطبين، وليس معنى هذا أن هذا هو الحقيقة، لماذا؟ لأن ألفاظ اللغة إنما تأخذ معانيها من إدراكات المدرك، والصور التى أمامه.

فمثلا إذا قلنا لإنسان يعيش فى البادية: ثم فقد أعد لك الإفطار. كلمة (الإفطار) هذه لها مدلول فى تلك البيئة، وهذا المدلول يعطى لها صورة لا تختلف، سيجئ له بقليل من اللبن وبعض التمر، هذا هو مدلول الإفطار فى هذه البيئة، لكن إذا ذهبنا إلى الحضر، فمدلول الإفطار يختلف عن البادية، يأخذ معنى أوسع، فإذا قلنا للأمير : قم للإفطار أو للملك: قم للإفطار، فالإفطار يختلف تماما فى كل بيئة من هذه البيئات.

والحق سبحانه حينما يعرض لنا عذابا فى الآخرة أو نعيما فى الآخرة لا يعرض لنا حقيقة العذاب ولا النعيم، ولكن يعرض لنا حقيقة العذاب فى تصورنا وإمكانيات أدائنا اللغوى، فإذا كانت الألفاظ توضع لمعان فيكون معنى ذلك أن يوجد المعنى أولا ثم يوضع له اللفظ، وإذا كانت الآخرة غيباً بما فيها فالمعنى غير موجود.

---

(٥) سورة الصافات، الآيات: ٦٢ ـ ٦٥.

إذن ليس تصوير هذا العذاب هو الحقيقة عند الله، بل هو فى نظرنا نحن، هو أن هذه الصورة هى ما يجد فيها السامع أنها منتهى العذاب.

وفى مقام آخر يصور الحق عاقبة المكذبين والحائدين عن الصراط بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا (٢٤) إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا**﴾[1].

كلمة (مآبا) تدل على أن الأوبة أمر مقطوع به، فكأنهم فى رحلة ويعودون. أما الأحقاب فقد وقف فيها العلماء، وقفوا فى مقدار الحقبة من الزمن، قالوا ثمانين سنة. ومعنى أحقابا: أزمنة متلاحقة متتابعة، من حقيبة الراكب التى يضعها خلفه فهى تابعة لرحله. إذن لابد أن نقول: إنهم يلبثون فى جهنم زمنا محدودا؛ لأن (أحقابا) لا تقال إلا لأزمنه متلاحقة؛ ولذلك يقول بعض الناس: ماداموا لابثين فيها أحقابا فنعطى الجمع أكثره. نقول له: لا.

أحقاب هذه معناها: عذاب مقيم. مثلما قال خالد بن الوليد، المعنى أنها عقوبة متلاحقة مستديمة، يجئ زبانية جهنم بعد كل فترة من الفترات يخرجونهم من النار وينقلونهم ناحية الجنة فيكون عندهم أمل بالإفراج عنهم، بعد ذلك يعودون؟ وهذا أشد فى النكاية، كما يجئ إنسان أنت منعته من الماء، ثم تؤمله وتجئ له بكوب من الماء وتعرضه عليه ليشرب، فيمد يده ويقربها إلى فمه، فتسقطها من يده على الأرض.

فكلمة (أحقاب) معناها أنهم يأخذونهم فترة فيأنسون أن الله سيغفر لهم ويعفو عنهم، وبعد ذلك يعيدهم إلى جهنم. قال الشاعر العربى:

كما أبرقت قوى عطاشا غمامة ... فلما رأوها أقشعت وتجلت

وقال:

فأصبحتم الليل الغداة كقابض ... على الماء خانته فروج على الأصابع

---

(١) سورة النبأ، الآيات: ٢١ - ٢٦.

وقوله تعالى ﴿ إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾[1] هذا الاستثناء يعطى الأمل، ولكن ما بعده خيبة الأمل، ولذلك قال الصحابة: هذه أشق آية فى القرآن. فساعة ما يسمع (إلا) يظن أن الفرج قد جاء وبعد ذلك يقول هل (حميما وغساقا). والحميم هو الماء المغلى المتناهى فى الحرارة، وهل هذا ما يسمى بربرا؟ والغساق الصديد، صديد أهل النار الذى ينزل من أجسامهم. وهل هذا شراب؟

وهناك من خفت موازين أعماله الصالحة وثقلت موازين أعماله السيئة. وهذا يقول الله تعالى فيه ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ⑧ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ⑨ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ ⑩ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾[2].

أمه هى النار؛ لأن الله يقول ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ ⑩ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ وعظمة الأسلوب القرآنى هنا أنه يصدر الأسلوب بالشئ المطمع، ثم ينهيه بالتيئيس المفجع. وذلك النقل عملية نفسية مرادة من الحق، وفى القرآن كثير من هذا اللون. كقوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3]، فساعة تسمع (فبشرهم) فالمعنى ينصرف إلى المغفرة والعفو، لأن البشارة تكون بالخير، وحينئذ تستشرف نفوسهم على أن هناك منقذا ومغيثا، وأن هناك منجيا يفهم من (فبشرهم) فإذا استشرفت النفس إلى ذلك جاء الجواب موئسا ومفجعا فيقول: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2].

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾[4] حين تنبسط النفس من قوله: (يغاثوا) يعاجل اليأس بقوله: ﴿بماء كالمهل يشوى الوجوه﴾[4].

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾[5]. فكلمة (أمه) أشعرت النفس بجهة العطف والحنان: ثم جاء بعدها فقال ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾[5].

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٢٥.

(٢) سورة القارعة، الآيات: ٨ ـ ١١.

(٣) سورة التوبة، من الآية: ٣٤.

(٤) سورة الكهف، من الآية: ٢٩.

(٥) سورة القارعة، الآية: ٩.

ومعنى الآية: أن النار تتهافت على المعذب بها كما تتهافت الأم على ابنها لتحضنه وتضمه، فكذلك شأن النار أم المعذبين بها؛ لأن الإنسان المعذب لم يرع نعمة الله فى تلك الأم أولا بما أودع فيها من العطف والرقة والاستجابة إلى كل دوافعه.

وهذا النوع هو الذى يأخذ كتابه بشماله ومن وراء ظهره، وهذا يقول الله تعالى فيه: ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾(١). والثبور: الهلاك ومعنى (يدعو ثبورا) يقول: ياهلاك تعال إلى. طبعا الشعراء لما صوروا هذا المعنى قالوا:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

يعنى : حين لا يرى إنسان شافيا مما هو فيه إلا الموت فمعنى هذا أن الذى هو فيه شر من الموت. والمعذب بالنار يقول. واثبوراه، واهلاكاه. يعنى. هذا أوانك ياموت فاحضر. من ماذا؟ من الهول الذى يراه.

وقد صور القرآن المواقف الحقيقية التى سببت له هذا الهوان والهول، وهو ظنه أنه لن يرجع إلى الله، وأنهم لن يتحولوا عن الحالة التى كانوا عليها من الضلال والطغيان والإفساد فى الأرض، ولمز المؤمنين وهمزهم والضحك منهم، والسرور بين أهليهم بذلك، وآمنوا بأن نعيم الدنيا مقيم لا يتحول.

والقرآن فى عرضه للعذاب يوم القيامة يتجه إلى الاستفهام المتكرر كما فى قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾(٢). ويقول: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾(٣). والمفسرون هنا يقولون: إذا تكررت فهى للتوكيد. ونقول: التوكيد عادة يأتى بغير عطف فيكون هكذا (كلا سيعلمون كلا سيعلمون). أنا لا أقول: زيد ونفسه. بل أقول: زيد نفسه. لكن (ثم) هنا تدل على أن هناك شيئين اثنين.

---

(١) سورة الانشقاق، الآيات: ١١ ـ ١٣. (٢) سورة النبأ، الآيتان: ٤ ، ٥.

(٣) سورة التكاثر، الآيتان: ٣ ، ٤.

ومراتب العلم ثلاثة، المرتبة الأولى: علم اليقين. المرتبة الثانية: عين اليقين. المرتبة الثالثة: حق اليقين. ثلاث مراحل: علم يقين، عين يقين، حق يقين، فإذا قال لك إنسان: أنا ذهبت إلى نيويورك ورأيت بها عمارات تنطح السحاب، وصدقته فهذا علم يقيني. فإذا جاءك مثلا وركب معك الطائرة ومر على نيويورك فقال لك هذه نيويورك فقد أصبحت عين يقين. فإذا نزلت فيها وأقمت فيها أصبحت حق يقين فهذا ليس تكرارا، بل هو مراحل العلم التى يمر بها الإنسان المعذب حتى ينزل فى العذاب بالفعل.

والإنسان يحس بمصيره وهو فى سكرات الموت، قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** ﴾[(١)] يعنى الذى كنت لاتراه فى الدنيا أصبحت تراه فى هذه الساعة.

يتضح له مثال عالم الملكوت الأشياء التى كان يكذب بها أو يشك فيها. ولذلك نجد كثيرا من المحتضرين يتكلمون بأشياء ونحن نقول: إنهم يخرفون. لا، بل إنهم يتكلمون بما يشهدون، يشهدون أشياء كانوا لا يرونها فى الدنيا، فإذا جاءت لهم هذه الحالة فقد علم أن ما حدث به من يوم القيامة ومن نعيمها وعذابها صحيح لا شك فيه.

هذا أول علم، وبعد ذلك حين يبعثون على حقيقتهم يعلمون علما آخر تصديقا لقوله تعالى: ﴿**كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ**﴾[(٢)] أو نقول: إن المكذب يعارض مصدقا واحدا، فأصبح هناك فريقان: مؤمن، ومصدق، كافر، ومكذب، ومؤمن مصدق. وسيعلمون موقعهم من يوم الفصل ويعلمون موقع الفريق المقابل فى يوم الفصل.

وحين تحدث المقارنة بين الموقفين: موقف المؤمنين وموقف المكذبين تكون

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٢) سورة النبأ، الآيتان: ٤ ، ٥.

الحسـرة. يعنى الذى يعذب فى يوم الفصل كـان يكفيه من آلامه أن يعـذب، أما أن يرى الفريق الآخـر ينعم فذلك تعـذيب نفسى آخر. والذى كـان مؤمنا يرى نفسه منعما والآخر معذبا فيكون هذا نعيما آخر.

إذن فالتنعيم والتعذيب يأخذ لونين، اللون الأول: أن يصيبه الألم ويرى الفريق الآخر المقـابل له فى نعيم. والـثانى يرى العذاب ويـرى غيره فى النعـيم. وفى هذا تتأكد الحسرة.

أعاذنا الله وإياكم من عذابه، ووفقنا إلي ما فـيه رضاه وثوابه، إنه سميع قريب مجيب.

●●●

الفهرس

تم بحمد الله